وطن عزيز غالي

إيمان محمود جمال الدين

وطن عزيز غالي

إيمان محمود جمال الدين

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

محمد المهدي

تدقيق لغوي :

محمد أبو عوف

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٠٠٦

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٥٠٠- ٩

وطن عزيز غالي

لقطات من سيرة الفريق فؤاد عزيز غالى

قائد الجيش الثانى

ومشاهد من أحوال مصرية

الفترة من يناير ١٩٦٥ إلى يناير ٢٠٠٠

إيمان محمود جمال الدين

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى أبى، أمى، أصدقائهما:

المجتمع النموذج الذى كان

إلى زوجى، أصدقائى، جيلنا:

الحاضر الصعب الذى نحياه

إلى أولادى، جيلهم:

عل فهمهم للحياة و قيمها العميقة يكون أفضل

علهم يحبون الوطن أكثر منا جميعًا



شكر واجب

خالى "أحمد محمد الحفنى" علمنى إخلاصه لشخص لم أقابله

أبدًا معانى الوطن الذى نفتقده اليوم.



مقدمة الكتاب

ورثت حب "عبد الناصر" عن أبى، أيا كان رأيك السياسى فيه إلا أن رمز التحدى و التمرد الذى طبعه فى وجدانى لا يقاوم.

كما ورثت كتب أبى و محاولاته الشعرية فى حبه لأمى، صور له و لأصدقائه فى الخمسينيات و الستينيات، أشرطة "أم كلثوم" و الأهم ذكريات كثيرة جميلة تختلط فيها شوارع وسط البلد الواسعة كالمدى فى نظرى وقتئذ، عندما يصطحبني لنمشى بجوار قصر عابدين و قد اعتليت حافة السور المنخفض حتى أطول قامته و هو ممسك بيدى، برحلات رأس البر بسيطة العشش الهادئة بحرًا و نيلاً، الناس الودودة التى جاورتنا، أصدقاء أبى و أمى، مسرح العرائس "صحصح لما ينجح" ، "الليلة الكبيرة"، لقطات لا تفارقنى: لفيلم "غرام فى الكرنك" الذى ينعش الروح كلما شاهدته و يجعل الحياة فى عينى أجمل، مسلسل "القاهرة والناس" الذى كان يعاد صباحًا، شكلوا جميعًا خلفية ذكرياتى، والكثير من الكلمات عن الوطن الرائع الذى يضمنا و المستقبل الأروع الذى ينتظرنا.

كان أبى شديد الرومانسية و التفاؤل!

كنا أصغر من شيئين: أن نحلم مع شباب الخمسينيات، نهتف ضد الاستعمار، العدو الواضح، نحمل الثوار على الأكتاف فى المظاهرات و نهتف بما نؤمن به... البلد

و ما نحبه.... الحرية، ضد ما نتحداه... الاحـــتلال و مـــا نرفضه..... الانحرافات السياسية و غيرها.

يوحدنا تأميم القناة وبناء السد العالى، "العـــالى".... كمـــا كانت كرامتنا ذات يوم...!

كما يجمعنا الانكسار، يلفنا و يعتصرنا ألم الهزيمة...

وكنا أصغر من أن نغتنم الفرصة، نطفو علي السطح كـــورد النيل الخانق، نسطو على كنوز المغارة مع "علي بابـــا" و كـــل "بابا" آخر و نكون شركاء لعصابة الأربعين بدأ من السبعينيات و ما بعدها.

كل ما حصلنا عليه طفولة تفوح منها رائحة زهر الياسمين فى ليالى الصيف، نزهة على صفحة نهر لم يلـــوث و لم يحجـــب أو يحتجب و لم يخصخص بعد، حواديت "ماما سلوى حجـــازى" الناعمة الرقيقة.

كانت طفولتنا هى آخر ما عشناه وعشقناه حقيقـــة قبـــل طوفان الزيف، قبل أن يبدأ البيع بالمزاد العلنى و قبل أن يـــصيح البائع و المرابى و الحامى و الحرامى و كل من كان:

(آلا أونا.... آلا دووا..... آلا ترى..)

و يكتسح جراد الابتذال أمامه كل شئ ليأكل كل أخضر.

ماذا لو سافرت فى الزمن و تجاهلـــت(الواقـــع) و الأيـــام و الأحـــزان و الأوهـــام و ركـــضت إلى أيـــامى (ســـنواتى)

(البريئة)الجميلة أستقبلها بملء أحضانى و أشــواقى و عــذابات روحى و يأسى من انتظار الحلم الغائب، الغائم، الــضائع بــين تفاصيل اليومية المعتادة و المكرورة، الهارب مهزومًا أمــام كــل الإحباط و التنازلات الواقعية.

أن أكتب مرة أخرى، أخرج مشاعرى المحبوسة طليقة علــى الأوراق يحنو عليها القلم و يستنطقها حتى تجهــر بمــا تحملــه و تخبئه من آمال عريضة كانت، عرض السماوات الزرقاء البعيدة و التى مع بعدها كنا نلمسها بأكفنا الصغيرة الممتدة إلى وهــج الشمس تمسك به و هو يتدفق من نوافذ الحجرات متسللاً مــن فتحات الشيش فى أيام الشتاء الدافئة، و هو يسطع دافعًا الضياء بكل قوة إلى عيوننا المغلقة و نحن نصيح فرحًا و مرحًــا، أولاد وبنات نلهو بــبراءة، أطفــالا،ونهيم بــدقات الحــب الأول، مراهقين،على شاطئ الإسكندرية الحبيبــة الــتى كانــت هــى الأخرى.

وكنت أحسب نفسى و جيلى من الأجيال المظلومة، لكــن بعد قراءة ما كتبه شاب فى العشرين أو يزيد قليلاً عما يشعر به من إحباط و مرارة و شعور بالعجز، و هو المولود فى بداية العام الواحد والثمانين اكتشفت كم كنا محظوظين ففى عام مولــده، وقتها كنا تلامذة في أولي ثانوى، الحلم أخضر، و العمر أمامنــا مديييييد، الحياة مزيج من الطفولة البريئة و المراهقــة المتوثبــة

و مغازلة الشباب لقلوبنا ورصيد ذكريات يحصن مستقبلنا مــن شبح الفقر و الخواء المعنوي و قلت في نفسى:

"من يري بلاء الأجيال التالية تهون عليه بلوى جيله، فصبرًا لعل الأيام تنصفنا جميعا يومًا ما"

ماذا لو كتبت عن....عن من؟ وعن ماذا؟إن الأحلام الصغيرة و الرائعة التى غلفت أيامى الجميلة أكبر من أن أتحــدث عنــها ببساطة و أنبل من ألا أذكرها.

ووجدتنى بعد حديث مطول مع واحد ممن عاشــوا الــزمن (الجميل) الجليل، أتبادل معه الحنين إلى تلــك الأيــام، بدايــة السبعينيات التي عاشها هو شابًا ورجلاً فى مقتبل العمر وعشتها أنا طفلة.تلمع فى عقلى الفكرة و تومض ببريق له حنين خاص: الحرب.... إن ذاكرتى لا زالت تحتفظ بطزاجة وقع الأحــداث في تلك الفترة ، ووجدتني أقرر، سأكتب عن **"الفريق فؤاد عزيز غالى"**، ذلك الرجل الذي لم أقابله في حياتي أبدًا، ولكنى منــذ كنت طفلة فى الثامنة، علق اسمه بذاكرتى بشكل ودود للغايــة، حتى إننى لفرط ما تأثرت به كنت أتخيل تفاصيل حيــاة هــذا الرجل و أتعجب، و لماذا هذا الاسم دون غيره لا أزال أحتفظ به فى مكان واضح من عقلى الواعى منذ طفولتى، ثم اكتــشفت شيئا آخر هو أن ذاكرتى احتفظت به على هذا الشكل (**العزيز الغالى**) و هو الاسم الذى كان يطلقه عليه خالى الذى عمل معه لسنين طوال صعبة لكنها مليئة بالكرامة و الإرادة و الحياة.

لقد ارتبطت الحرب وذكرياتها بأحاديث خالى عـــن ذلـــك الرجل، قد يبدو غريبًا أن نرتبط بمن لا نعرفهم من مجرد أحاديث الآخرين عنهم غير أن الصدق والحب اللذان كانا يـــشعان مـــن عينى خالى كلما ذكر هذا الرجل وذلك التعبير الشجى الـــذي يكسو ملامحه ويزيل تجاعيد الزمن و المرض والهزيمة أمام الأيـــام القاسية، كل ذلك و غيره كان يربطنى ويقربنى من شخص عرفته من خلال حب من زاملوه وحدثونى عنه.

ترى من هو هذا العزيز الغالى؟

وكان الحديث الذى دار مصادفة بينى و بين رفيـــق الـــسفر الذى عمل هو الآخر بنفس الفرقة، **الفرقة ١٨ مشاة**، هو مـــا دفع بالفكرة إلى بؤرة العمل.

لقد أردت دومًا أن أعبر عن لحظات حلوة و مبادئ راقيـــة وأحاسيس بالغة الرقة و الحزن و القسوة أحيانًا مـــرت بجيلـــى وترجمت حبى للوطن في الغربة، ضياع الأحلام، تحطم الـــصور، الرموز و القيم و سخطى من الظلم فى أحضانه و لم أجد أكمل من هذه الفترة فأعبر عنها لتعبر عنى.

"هوه اللي يعشق عيون بلده يصير خاطى؟
ده إن كان عشقك يا مصر خطية ونجاسة
طين النجاسة -يا نخّاسة- بلغ باطى"
عبد الرحمن الأبنودى



لقطات من سيرة الفريق فؤاد عزيز غالى

معنى الوطن؟

" شاى بالحليب علي قهوة فى الضاهر هناك

نسمة عصارى السيدة و دير الملاك"

"و لا شمس مغرقة برد النهار؟

"و لا أمك؟ و لا أختك؟"

و لا عساكر دفعتك و الرملة نار؟

و لا إيه؟ و لا إيه؟ و لا إيه؟"

أغنية لمحمد فؤاد

و لا عساكر دفعتك و الرملة نار؟ جملة تلخص معانى كثيرة من مرادفات كلمة وطن.

إن الكتابة عن الفريق "فؤاد عزيز غالى" هى جزء من الحكى عن سيرة هذا الوطن بكل ما يحمل من ذكريات أليمة كانت أو مشرقة، بكل ما له و ما عليه، بكل تاريخ الأرض و الناس الذين عاشوا فوقها و منها و بها، أحبوها لأن "ترابها من ناسهم و نسيامها أنفاسهم"، كما يردد "نجم" و "إمام" فى لحنهما الفريد:

" نسايمها أنفاسى و ترابها من ناسى

و إن رحت أنا ناسى ما هتنسانيش هى"

الأرض و رفات الأهل و الأحباب يمتزجان منذ عهد بعيد موغل فى القدم، قد يكون أقدم الأزمنة على الإطلاق، فلم يحدث كثيرًا، على حد علمى أن استقر شعب و لقرون طوال فى نفس المكان و كونت رفاته على مدار العهود طبقات أرضه و ارتبط بها مثلما فعلنا.

"الأرض أرضنا عن أبونا و جدنا

و بكره و لا بعده لأولادنا بعدنا"

مرسى جميل عزيز/ كمال الطويل

هذا التعبير العبقرى الذى نستخدمه كلنا، على اختلاف الثقافات و الانتماءات، فنتناسى الإساءة، نتنازل عن غضب ونوصل ما تقطع من صلات:**"كرامة لعظم التربة"**

تحتل الأرض فى الإدراك الشعبى هذه المكانة الأسطورية، حتى باتت تعادل الشرف و الوجود الإنسانى نفسه.

الأرض عرض، والتهاون فيها خسة لا تليق بالرجولة، بمفهوم الفروسية، لنعاير من يفرط فيها كأشد ما تكون المعايرة إذا ما تمثلنا رجلاً يبيع لحم بيته للغرباء، ليطوف العامة لتجريسه:

"عواد باع أرضه..... يا أولاد،

على طوله و عرضه..... يا أولاد"

مرسى جميل عزيز/ كمال الطويل

لذلك نموت من أجلها، ونقيم فى قلوبنـــا مقامًـــا للـــشهيد، نقدسه و نرتفع به إلى مصاف الملائكة، و تصبح الحرب للدفاع عنها و استردادها أسمى معانى النخوة.

إن تجربة الحرب تصهر البشر، فـــالموت لا يفـــرق بينـــهم والتراب يجمعهم فى النهاية ذرات من النبل، الشهامة و الكرامـــة يحملها الهواء لتنعش جسد الوطن عندما يترهل بفعل الاســـتكانة و التقوقع داخل الذات وتعيده إلى الوعى عندما يغيـــب بفعـــل الجهل، بفعل الإذعان لمبادئ المادة و من خلفها الثقافة التى تمليها، بفعل الأزمة: الأزمة الأخلاقية، الاقتصادية، و بـــالأحرى أزمـــة الانتماء الحقيقى.

من ذا الذى يفكر عن أى بقعة يدافع تحديدًا وهو أمام نيران العدو و مدافعه الثقيلة العمياء؟

من ذا الذى يضع حدودًا فاصلة، لحظة يموت، و يسأل نفسه:

أكان يدافع عن شبرا، أسيوط، دير المحرق وكنيسة "العدرا"؟

أم "السيدة زينب" الحى و المقام، السيد البدوى، الحـــسين والإمام الشافعى الحى و المقابر؟

عن أى الأمهات أو الآباء أو الأبناء؟ عـــن أى أرض؟ وأى رفات؟

لا شئ من هذا يخطر على بال أحد، لأننا جميعًا أمام الموت.. لحظة مواجهة العدو الواحد.. نكون سواء و نكون.... واحد.

"دولا مين ودولا مين   دولا عساكر مصريين
دولا مين ودولا مين   دولا ولاد الفلاحين
دولا الورد الحر البلدى   يصحى يفتح اصحى يا بلدى
دولا خلاصة مصر يا ولدى   دولا عيون المصريين"

(بقلم أحمد فؤاد نجم غناء: الشيخ إمام)

شباب الاستنزاف فى صحراء مصر

اللواء مهندس متقاعد/ حسين حسن ١٩٦٩/ ١٩٧٣

عصفت بى الهزيمة مثل ملايين غيرى، كنت وقتها فى نهائى هندسة و مع اشتراكى فى أعمال الدفاع المدنى تولدت عندى رغبة و قناعة بضرورة التحاقى بالجيش مثلى فى ذلك مثل الكثير من الشباب في هذا الوقت. إن جرح الهزيمة لم يسلمنا لليأس بل للتحدى و لرغبة دافعة لاسترجاع الكرامة.

بعد أن أنهيت مدة التحاقى بالتدريب العسكرى الخاص بالضباط المتخصصين توجهت للوحدة التى كلفت بها، بالفرقة الثامنة عشرة مشاة، لم يكن الجيش مثل هذه الأيام فلكى أعرف مكان وحدتى ظللت أجوب الصحراء المحيطة بها منذ الثانية ظهرًا حتى السابعة ليلاً، كانت الخنادق منتشرة و الحياة العسكرية قاسية إلا أننا كنا لا نشعر بأى تذمر لأن هدفنا كان واضحًا.

من حسن حظى أنني كنت تحت قيادة العميد، آنذاك[1] فؤاد عزيز غالى. لم أعرف فى حياتى إنسانًا متفانٍ فى عمله مثله، كان لا يكاد يترك الوحدة، ،ولا يكاد يرى أسرته، يستمر بالعمل حتى الثالثة صباحًا ويستأنفه عند السابعة و كنا نعرف ذلك عندما يدور مرة أخرى مولد الكهرباء.

كان يقول: "ولماذا أذهب إلى بيتى، هنا بيتى"

و كان يبتسم دائمًا و يضيف: " إن من يعصرنى سيحصل على نصف رمال هذه الصحراء"

"أنا أعرف هذه الأرض جيدًا و أعرف موضع كل حبة رمل بها"

وكنا نتعجب من أين له هذا الصبر و المثابرة و العمل الدءوب بدون كلل و بكل حماس.

"أثناء الحرب وتحديدًا أثناء الثغرة كان قراره حازما: الدفاع حتى أخر نقطة دم منا جميعًا، و أمر بإطلاق النار على أى فرد يتراجع عن موقعه و ينسحب."

صمت، سرح وقد أشرق وجهه بابتسامة عريضة :

"*القنطرة شرق.... أول مدينة تحررها، نعم كانت أيام رائعة، الله يرحمه"

[1]*معركة القنطرة شرق

"لقد كانت الحصون التى بناها العدو فى قطـاع القنطـرة شرق من أقوى حصون خط بارليف وصل عددها إلى سـبعة حصون ، كما أن القتال داخل المدينة يحتـاج إلى جهـد لأن القتال فى المدن يختلف عن القتال فى الصحراء ، ولذلك استمر القتال شديدًا خلال هذا اليوم .. واستمر ليلة ٧ / ٨ أكتوبر استخدم فيه السلاح الأبيض لـتطهير المدينـة مـن الجنـود الإسرائيليين وتمكنت قوات الفرقة ١٨ بقيادة العميـد فـؤاد عزيز غالى فى نهاية يوم ٧ أكتوبر من حصار المدينة والسيطرة عليها تمهيدًا لتحريرها. وجاء يوم الاثنين ٨ أكتوبر وتمكنـت الفرقة ١٨ مشاة بقيادة العميد فؤاد عزيز غالى مـن تحريـر مدينة القنطرة شرق بعد أن حاصرتها داخليًـا وخارجيًـا ثم اقتحامها ، ودار القتال فى شوارعها وداخـل مبانيهـا حـتى انهارت القوات المعادية واستولت الفرقة على كمية من أسلحة ومعدات العدو بينها عدد من الدبابات وتم أسر ثلاثين فـردًا للعدو هم كل من بقى فى المدينة وأذيع في التاسعة والنـصف من مساء اليوم ٨ أكتوبر من إذاعة القاهرة تحرير المدينة الأمر الذي كان له تأثير طيب فى نفوس الجميع".

---

[1] (المصدر:حرب أكتوبر ١٩٧٣مذكرات محمد عبد الغنى الجمسى- الطبعة الثانية عام ١٩٩٨)

الدقيقة الثالثة و العشرون

كم يمر من الوقت قبل استعادة أرض مسلوبة منذ ست سنوات، يفخر العدو أنه أنهى حربه وقتها في ستة أيام؟

كانت كل التوقعات و التحليلات العسكرية بعد الهزيمة تؤكد إن تخطى المصريين لها لن يتم قبل وقت طويل، و قد يكون حتى طويل جدا.(كتاب: يوم سقطت السماء فوق إسرائيل).

إلا أن المفاجأة كانت سرعة تسليح الجيش وتدريبه بحيث لا يستعيد فقط مستواه قبل الهزيمة و يستعيد بناء عناصره التي فقدها سواء في حرب اليمن أو في حزيران الحزين، بل يتخطى كل ذلك بمراحل يتفوق فيها على نفسه.

هنا تكمن الكلمة السحرية و قوة المصريين: " الأزمة" فهي التي تخلقهم خلقًا جديدًا مغايرًا، مترفعًا عن سلبياتهم، نواقصهم و نقط ضعفهم شئ شبيه باستعادة الحياة بعد الموت، بخروج العنقاء من النار، و لم لا و كتاب الفراعنة الأشهر المعروف بكتاب الموتى اسمه في الواقع "الخروج للنهار". إن الأزمات هي التي تبعث في المصريين أحسن ما فيهم، لعله يكون ميراث الصراع مع النهر لترويضه، مع الفيضان لتلجيمه و كبح جماح ثوراته أو الالتفاف والتكاتف لاتقاء شحه و حرمانه للأرض من شريان حياتها.

إن الأرقام القياسية التى سجلها الأبطال جنود و ضباط و قادة فى ملحمة أكتوبر لا يمكن اختصارها فقط فى سرعة سقوط خط بارليف بعد ست ساعات، و لا هزيمة الدبابات أمام الجنود المشاة من حيث أعدادها المتساقطة بفعل المدافع المحمولة على أكتاف الفلاحين و الصعايدة السمر فعبدالعاطى لم يكن سوى واحد من أبطال لم نعلم عنهم شيئًا، لأنهم ضحوا و ذهبوا من سكات (لا طنطنة و لا إعلانات على رأى نجم).

أما بالنسبة للفرقة الثامنة عشرة مشاة و قائدها فكان لهم السبق ليس فقط فى تحرير الأرض لكن الأجمل الوقت القياسى الذى وقعت فيه النقط الإسرائيلية الحصينة والسيطرة على مدينة القنطرة الشرق و استعادتها بالمواجهة بعد ثلاث و عشرين دقيقة.

رقم من ضمن أرقام كثيرة يجب أن نفخر به و نعلم أولادنا أن يفعلوا.

الدم غالى و التراب غالى و أكتوبر كمان..... "غالى"

يرتبط اسم "فؤاد عزيز غالى"، و كذلك أسماء الكثيرين بدأ من "عبد العاطى"، "أحمد حمدى" ، "شفيق سدراك" أول الضباط الشهداء، "سعد الشاذلى"،"أحمد بدوى"، "أحمد إسماعيل"، "الجمسى" و "عاطف السادات" (و بالطبع الرئيس الراحل "أنور السادات") جميعهم و غيرهم، ارتباطًا يكاد يكون طبيعيًا، متوحدًا و غير ناقصًا بحرب أكتوبر. كأن تتذكر مثلاً

الصيف فتقفز الإسكندرية إلى مخيلتك، الشتاء يذكرك برائحة المطر، وأسوان بأشرعة المراكب المفرودة على صفحة النيل، يأتي أسم "شادى عبد السلام" فى سياق حديث فترى مشاهد "المومياء" تمر بالذاكرة، و هكذا. أو هكذا يجب أن يكون.

بين سور "برلين" و خط "بارليف" و أوجاع قلب المدن

القنطرة مشطورة القلب تئن بوجع مكتوم، نصفها الأول بين الأسر و نصفها الثانى بين الهجر، مدينة مصرية مصلوبة على ضفتي القناة، تنظر إلى الأرض الأم كل صباح و تنتحب:

"وطنى ....وطنى لماذا تركتنى"

توسعها حرارة أشعة الشمس عطشًا فيزداد شوقها للنيل.

يُدق بين ضلوعها خط يدميها، تقول عنه الأساطير أنه مسكون بلعنة الدوام، رابض بثقل رماله وأحجاره. ست سنوات تنتظر، ست سنوات و القلب يعتصر.

برلين تصحو من النوم ذات يوم أكثر برودّة من كل أيامها، أكثر تجهمًا، أكثر قتامةً، و ينقبض القلب بشدة ، ثم ينشطر.

تستعيد برلين نصفيها بعد ثمان و عشرين عامًا من الانفصال، و ينهار سور برلين بعد ضربات مثابرة للحرية.

سور برلين المحطم يصير رمزًا **للحرية** عندما تطلب فتنتصر.

القنطرة تستقبل أيضًا رمضان من العام ٧٣ ، و لكن ليس ككل الأعوام، صباح السادس من أكتوبر يحمل ريحًا طيبة، أولاد

سمر الوجوه يغنون على الضفة الغربية ، موال للصبية و البلـــد، عساكر منهمكون فى أشياء ثانوية، يغسلون البدل الميرى، يمصون قصب، يتمازحون، يسبحون فى مياه القناة الهادئة التى لا تنبـــئ عن شئ هى الأخرى، و يشدون الانتباه باسترخائهم القاتـــل أو لا مبالاقمم و بعدم اهتمامهم المخادع، فينتشى الواقف مراقبًـــا على الضفة الشرقية، و يطمئن أكثر إلى الأسطورة و يعتز بالخط الحصين أكثر فأكثر.

تتغير الصورة بعد ساعات ست، فلا تنتظر القنطـــرة نيـــف و عشرين عامًا هى الأخرى حتى يسقط السور، الخط العسكرى المتين، فقط ست ساعات، ينهار تحت هجوم شباب خمس فرق مشاة الجيش، ومنهم شباب الفرقة ١٨ مشاة، يستسلم أمـــامهم فى خلال ساعات، و يكرِّم العميد "غالى"، محمد العباســـى، أول الجنود الرافعين لعلم البلاد فى هذا المكان، فيما بعـــد. تـــسقط *القلعة الحصينة الأولى للعدو هنا فى القنطرة شرق و على أيدى غالى و رجاله بعد ٢٦ دقيقة فقط من بداية عبورهم، أيّة معجزة إنجاز أروع من هذا؟!! لا أجد، لكنه الحـــب الـــذى يجمعهـــم ويربطهم بالوطن الأم.

٢*(وفى الساعة ١٤٢٠ بدأت الموجات الأولى لخمس فرق مشاة و قوات قطاع بور سعيد فى اقتحام قنـــاة الـــسويس

---

٢ (حرب رمضان، اللواء طه المجدوب، ص: ١٠٦)

مستخدمة حوالى ١٠٠٠ قارب مطاطى، و بعد عدة دقـائق وضع ٨ آلاف جندى أقدامهم على الشاطئ الشرقى)

(قامت قواتنا بحصار نقاط العدو القوية و مراكز مقاومته و قلاعه الحصينة، و بدأت فى مهاجمتها و تـدمير تحـصيناتها، وسقطت أولى حصون العدو_ القلعة رقم واحـد فى منطقـة القنطرة شرق فى الساعة: ١٤٤٦)

يسيطر "غالى" و ضباطه و عساكره علي سبع نقاط حـصينة بخط "بارليف" و يحررون القنطرة من القيـد و مـن الأسـر، يتوغلون حوالى عشرين كيلو متر فى عمق سيناء و دون خسارة، فى عرف الحروب، تذكر.

***خط بارليف** المحطم يصير رمزًا لـ**لإرادة** عنـدما توجـد فتنتصر.

"[٣]*ومن الخصائص المميزة لقناة السويس وجود ساتر ترابى بطولها علي ضفتها الشرقية نتيجة أعمال الحفـر و الـتطهير يتراوح بين ستة إلى عشرة أمتار مما أوحى للعـدو باسـتغلاله وتعليته إلى خمسة وعشرين مترًا فى بعض القطاعات بزاوية ميل تزيد عن خمسة و أربعين و بإزاحته غربا ليلامس حافة القناة

---

[٣] *(من كتاب، حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة، أكتوبر ١٩٧٣ ، بقلم اللـواء حسن البدري، اللواء طه المجدوب، عميد أ. ؛ ضياء الدين زهدي، ص:٤٢/٤٣)*

تماما ليضع أمام المقاتل المصرى مزيدًا من العقبات و ينمى في وجدانه شعورًا بالعجز واليأس.. ثم أقام داخل و فوق قمة و إلى الخلف من الساتر خطوط دفاعية محصنة تشكل ف مجموعها منطقة دفاعية من أقوى المناطق الدفاعية التي عرفها التاريخ، أطلق على الخط الأول منها "خط بارليف"، الذى تكلف إنشاؤه ٢٣٨ مليون دولار،وقتها، ما يعادل نصف تكاليف السد العالى.

يتكون خط بارليف من ٢٢ موقعا حصينًا، تضم ٣١ نقطة قوية، تبلغ مساحة كل نقطة ٤٠٠٠ متر مربع و أكثر و هى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تغوص فى باطن الأرض و تعلو حتى قمة الساتر. يتكون الطابق الواحد من عدة دشم (غرف) من الأسمنت المسلح المقوى بقضبان السكك الحديدية و ألواح الصلب يفصل كل طابق عن الأخر طبقة من القضبان الحديدية والخرسانة المسلحة و الأتربة و الأحجار يبلغ سمكها مترين تقى هذه النقط ضد القنابل الثقيلة حتى ١٠٠٠ رطل و ضد كافة القصف و النيران البرية و الجوية الثقيلة عدا الذرية. و تحيط بها نطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة و حقول الألغام المضادة للدبابات و الأفراد بعمق ٢٠٠ متر، غير الشراك الخداعية التى تغطى ميول الساتر و قمته.

كما تخرج مواسير لخزانات الوقود و النفط من بعض النقط لتغطية سطح القناة وتحولها إلى مسطح من لهب يرتفع إلى متر و تبلغ درجة حرارته ٧٠٠ درجة مئوية.

" مسحراتي صوتي يشبه شهيد

بيرد للدنيا فى كل سحور

دراعات ولادنا لما هدوا السور

الله أكبر يا هتاف الجيش

أجمل علم فى الدنيا صقر قريش

وأجمل الخيالة جيش منصور "

فؤاد حداد

الفرقة ١٨ مشاة

قلما تتجمع الرموز فى شخصية أو فى مجموعة مثلما تحقق ذلك فى شخص القائد المصرى "فؤاد عزيز غالى" و فرقته.

فهم كمشاة، أول من عبر، أول من رفع العلم على أول قلعة تسقط ، أول من حرر أرض.

ولمن لم يعش هذه الفترة و لمن نسى أو تناسى، أذكر أن المعنى الكائن وراء كل ذلك كان استرجاع الثقة فى أنفسنا بقدر ما كان نزع الوجه المرعب لإسرائيل.

لم تعد النسر الجارح المنقض و لم نعد صغار الطيور المستضعفة المتخبطة فزعا فى دروب الصحراء هاربة فى كل الاتجاهات من هجمته.

عزيز غالى، هو و رجاله لم يتراجعوا و لم ينسحبوا، تـــشبثوا بالأرض، حافظوا على تقدمهم و انتصارهم طوال فترة الحرب وحتى صدور قرار وقف إطلاق النار.

تقدم غالى بفرقته بعمق لم يصل إليه قائد آخر ١٨ كيلـــومتر (فيما عدا قوات الصاعقة التى نزلت خلـــف خطـــوط العـــدو و توغلت فى العمق)، كان يمكنه التقدم أكثر حتى العريش، غير أن الأحداث التى شكلت الجزء الثانى من الحـــرب و كـــذلك الغرض الإستراتيجى منها إضافة لأسباب تتعلق بما حدث علـــى الجبهة السورية و غيرها لم تتح للقيادة العليا إلا أن تكتفى بمـــا تحقق من تقدم بالفعل. نحن قادرون إذاً على الفعل، و أى فعل!!

معجزة بمقاييس الحروب الحديثة فى ظل إمكانياتنا المتاحـــة (المسموح لنا بها و بعدم تخطيها منذ انكسار محمد علي الكبير فى اليونان علي أعتاب أوروبا) و أمام إمكانيات العـــدو اللانهائيـــة بفضل الأم الراعية.

فيما بعد، و لتكتمل الرموز الكامنة في شخـــصه،أصبح أول محافظ مصرى لجنوب سيناء حيث "شرم الشيخ" تلك البقعة التي اعتبرها "موشي ديان" درة الغنائم و أهم ما حصل عليـــه مـــن أرض بعد هزيمتنا. ليعلن علي الملأ أرقام مكتبه الخاص فى انتظار مكالمات الزعماء العرب ليعلنوا استسلامهم "بالذوق".

أى هوان كان!!

[4] "يقول الموتور المغرور بصوت حالك وقد نسى انحناءهم لأمريكا لتنقذهم: ومع هذا حاصرت قواتنا الثغرة وأوقعت العدو فى مصيدة لم يلبث كيسنجر أن طلب من الرئيس السادات وقف إطلاق النار مقابل الانسحاب من الثغرة..

إن القضاء على الثغرة فى الحروب ليس عسيرًا، ولقد كان من السهل على جيشنا احتواؤها وتدمير العدو في الدفرسوار، كما جاء فى تقييم الفريق فؤاد عزيز غالى الذى لم يأسف على شئ آسفه على فوات تدميرها يوم٢٤ ديسمبر قبل أن تصدر إليه الأوامر المصرية بالتوقف.."

رب الجنود الذى فى التوراة أما أب الجنود فعلي الجبهة

يقول "غالى":

"كقائد، لا يهم كم من الخطط تضعه، و لا كم من التكنولوجيا توفره لجيشك، فالمحارب، و مدى ارتفاع روحه المعنوية، و مدى عمق إيمانه بالمعركة التى يخوضها، هما العاملان الرئيسان و المحك الحقيقى فى أرض المعركة "

الأهرام ويكلى يناير ٢٠٠٠/١/١٩

كلماته المعبرة عن قناعته الشخصية و المترجمة لأسلوبه فى التعامل مع قواته، و كيف كان عميق الفهم و الإيمان بجنوده.

---

[4] الاهرام مقال د. نعمات أحمد فؤاد ، بتاريخ ١٩٩٨/١٠/١٤

عميق الفهم و الإيمان بجنوده: هنا يكمن السر، و هنا تكمن عبقرية هذا الرجل. الجنود البسطاء هم وقود المعارك، هم فحم نيرانها المستعرة التى تتلقفهم بكل نهم، و هم الدرع الواقى لقلب الوطن، الذى يضن عليهم بالكثير مما يتمتع به السادة، المترفون فيها، المستمتعون بشمسها و هوائها العليل. منتجعاتها ونسائم نيلها حيث سكناهم هناك ، فوق، فى البنايات الشاهقة، القصور، والمقار الوثيرة،هؤلاء لا يعرفون قسوة الهجير فى صحارى هذا البلد حيث الخنادق و الثكنات و العيشة الخشنة للمجندين أو ظهرًا منتصف أغسطس فى الغيطان عندما يعودون فى أجازات قصيرة لقراهم.

لا يعرف علية القوم ووجهاؤها قسوة الفقر و الحاجة، لا يتألمون من بلهارسيا، أو حرمان غذائى، يجعل من أجسامهم مرتعًا للوهن، و من عقولهم مرتعًا للخرافة و الجهل، أو يقعون فريسة لسرطان صفقات أصحاب البلد الجدد المشبوهة. و مع كل هذا النعيم الذى يتمرغ فيه سادتها، و مع كل هذا الخير الذى يهطل عليهم من سماء وينبت من أرض هذا الوطن، إلا أنهم قليلاً ما يشكرون، قليلاً ما يتذكرون أو يدفعون ضريبة العز و الأبهة، قليلا ما يذهبون طواعيّة للموت في سبيله، فهناك الكثير الذي يغريهم بالتمسك بالحياة.

بينما هؤلاء الفلاحون و الصعايدة الفقراء، ملح الأرض وزادها، الذى به تتجدد خصوبتها، كلما سقطوا عليها مدافعين

عنها، مخضبين بالدماء، ملونين أديمها ببهاء الأحمر القانى النازف من عز شبابهم و أحلامهم البسيطة المنسية، المطوية، كصفحة سقطت من حسابات تاريخ هذه الأرض.. هؤلاء هم من شكلوا الأولوية عند غالى، و كان يعرف أنهم ينتمون لأقل القليل، مما يوفره لهم الوطن، من فتات.

كان دائمًا ما يردد: "إن هؤلاء عندى هم من يعرفون للوطن قدره و هم من يأتون بالنصر إذا أحسن تدريبهم، فالطعام الذى نقدمه لهم مثلاً فى الجيش، هو بالنسبة لهم نعمة كبيرة، و لا فنادق الخمس نجوم، هؤلاء هم من يتدافعون للموت دفاعًا عن مصر" (السيدة/ نجوي غالى، ابنة الفريق الراحل، حديث خاص معها)

شديد الحرص على تدريبهم، و الإشراف على ذلك بنفسه، كل جندى مهم، كل فرد مهم، و دوره حيوى، و الكل يجب أن يتم تدريبه لأقصى درجة، مهما بلغت قدراته الذهنية، لابد أن يصل الجميع إلى مستوى غير قابل للمنافسة، و لو حكم الأمر أن يحفظهم عن ظهر قلب أدوارهم.

التدريب على الرماية (الرشاش)

اللواء مهندس متقاعد/ مصطفي الدرينى:

"تدريب الرماية فى الجيش له مستويات عديدة، أدناها التدريب على المدفع الرشاش، و لقد كان العميد غالى يحضر

بنفسه كل التدريبات حتى مستوى التدريب بالرشاش، لاحظ مرة أن الرماية فى هذا المستوى ليست على درجة عالية من الكفاءة، و أصر أن يتم رفع التدريب على الرماية إلى أقصى ما يمكن و أن يتم ذلك من مخصص الذخيرة و حمل على عاتقه الإتيان بتصريح من قائد الجيش بذلك".

و قد كان، شهدت أرض المعركة بحسن حدسه، وكسب رهانه على ذلك الحصان الأسود الأصيل: الجندى المصرى.

"كيف يمكنى أن أطلب من جندى، أو ضابط، أن يتفانى فى تدريبه و القيام بدوره على أكمل ما يكون، بينما ذهنه مشغول بأب أو ابن مريض، أو خلاف عائلى حاد قد يعصف بحياته الأسرية أو أزمة مادية ما؟" (السيدة/ نجوي غالى، حديث خاص معها)

لذا لم يكن من المستغرب، أن يشارك جنوده و ضباطه همومهم، و يساعدهم على حلها، و لو بالمشورة. و لم يكن من العجيب أن تصف الصحف بعد مماته، صلته بأفراد فرقته وجيشه، بأنها كانت أبوية، بالمعنى الرحيم و ليس التسلطى للكلمة.. لا تزال سيرة الرجل تدمع عين"الخال" دمعًا لا تلحظه لكنك تلمسه و هو يتحدث عن "العزيز الغالى" و يستمر على ولائه و وفائه له و إن بعدت كثيرًا و تناءت فى الذاكرة سنوات الخدمة.

* "وأنا أجتاز قناة السويس يوم٧ أكتوبر مستخدمًا أحد قوارب القوات المسلحة، كنت أرى كل شئ مختلفًا، فالقناة التى كنت أعبرها سرًا فى أثناء الليل وأنا فى طريقى مع رجال الكوماندوز لتنفيذ عملية خلف خطوط العدو، ها أنا اجتازها فى وضح النهار، أما الضفة الشرقية وباقى أرض سيناء التى كنت أتسلل إليها حريصا على ألا يكتشف العدو وجودى، فإننى أدب عليها بقدمي في ظل الأعلام المصرية التى عادت ترفرف فوق صواريها شرق القناة.

أما رجال القوات المسلحة، فقد تمكنوا من اقتحام القناة ظهر السادس من أكتوبر، واكتساح مواقع خط بارليف الحصين، وهذا الإنجاز الكبير، أسهم في تحقيقه الأحياء من المقاتلين والشهداء، فهم لم يشقوا طريقهم إلى الجنة فقط، بل شقوا لمصر طريقًا للانتصار.

كانوا يقاتلون، ويندفعون للأمام والاستعداد لبذل الروح والقيمة العليا التى لا تزاحمها قيمة أخرى، حتى ولو كانت الحرص على الحياة.. فها هو جندى من الفرقة ١٨ مشاة، يرى دبابة تقترب من قائد الفرقة العميد فؤاد عزيز غالى، كانت الدبابة على مسافة ما يقرب من١٥٠ متر، ولو نالت من القائد سيسوء الموقف، ولم يفكر كثيرًا.. اندفع باتجاه الدبابة ووضع لغمًا مضادًا للدبابات فوق صدره.

* الأهرام ٢٠٠٢/١٠/٦ كنت هناك الانتصار.. واكتمال الصورة بقلم/ عبده مباشر

واستلقى على الأرض لتمر الدبابة من فوقه، وينفجر اللغم، وتحترق الدبابة، وتصعد روح الشهيد إلى السماء، ويتمكن من إنقاذ قائده".

جدع يحب "الجدعان"

اللواء متقاعد / مهندس مصطفي الدريني (كبير المهندسين ما بين ٧٠ و ٧٣ الفرقة ١٨ مشاة):

"أغسطس ٧٠، فى وقت تزامن مع وقف إطلاق النار وفقًا لمبادرة "روجرز"، كان موعدى مع الفرقة الثامنة عشرة مشاة و معرفتى بالعميد فؤاد عزيز غالى قائدها و الذى توثقت صلتى به و تعمقت بعد هذا الموقف:

" مجموعة قائد الفرقة تدريب مقدس، مكانها النسق الأول وراء القناة مباشرة هى الخط الأحمر الذى يلغى عنده كل الإجازات و لا يقبل فيه الغياب، الكل يعرف هذا عنه، وكان ذلك اليوم هو يوم فرح أخى الأصغر و كتب كتابه، و كنت متيقن انه لا سبيل لى لحضوره فغدًا صباحًا يبدأ التدريب و لا مجال لمجرد التفكير فى هذا الأمر.

ورآنى منشغل البال على غير العادة، وسألنى، و عرف ما يهمنى.

"إنزل حالاً مصر و معك عربتى لتوصيلك"

فوجئت، لوهلة لم أستطع أن أسمع جيدًا ما قاله، فعاد وقال:

"أقول لك، انزل الآن مصر هيا أسرع لتلحق بالفرح"

و بالفعل وصلت القاهرة لأحضر فرح أخي، و طلبت من سائق العربة الخاصة بالعميد فؤاد غالى، التي أقلتني، أن ينتظرني، وعند الثانية و النصف بعد منتصف الليل عدت معه إلى موقعي علي الجبهة لأصل قرب الفجر و لم يتسن لى أن أبدل ملابس الإجازة و يفاجأ بى العميد غالى أمامه فى التدريب، ليصيح بى :

"ماذا أتى بك، ألم تحضر فرح أخيك؟

"حضرته يا فندم، لكن كان لازم أحضر التدريب"

و نظر إلى بعين معجبة و مقدرة، و من يومها نمت علاقة قوية و عميقة بيننا.

فكما كان هو "جدع" معى و مع كل الضباط و المقاتلين، كان أيضًا يحب "الجدعان" الذين لا ينسون أو يتهاونون فى واجبهم و مسؤولياتهم مهما كان الأمر.

سنوات الانتظار اليوم تمر كلحظة خاطفة، كل الآلام تختفى، كل الماضى، الحاضر و حتى المستقبل ينضوى تحت إلحاح اللهفة لضم الأرض عزيزة كما كانت دوما على القلب.

عبر غالى مع أول رجال فرقته العابرين، لم يطق صبرًا، و لم يستطع إلا أن يكون قائدًا يتقدم مع جنوده وليس بعدهم لساحة المعركة التى ستشهد الثأر للكرامة و لكل هؤلاء الجنود و الضباط، الذين ثكلت بهم مصر، ضحايا الأخطاء القاتلة، سياسية كانت أو عسكرية.

سيعبر اليوم ليستطيع هذه المرة، إن قُدِّر له العودة سالمًا، النظر مباشرةً بفخر إلى عيون أبنائه الأربعة.

سيناء حبه الكبير الممتد من الشباب البادئ إلى الرجولة المكتملة، ها هى الآن أقرب إليه من الحقيقة نفسها. بملء ذراعيه استقبلها "عزيز"، منهارًا باكيًا من الشوق يقبِّل الأرض:

"كان مذاقها أشهى من العسل" كما قال "غالى".

كانت من العوامل التى ألهبت حماس المقاتلين و عدت سمة مميزة لأكتوبر، من ضمن عوامل أخرى كثيرة، عبور القادة مع المقاتلين فى تلاحم حقيقى لا يرغب فى المجد بقدر رغبته فى النصر وتحرير الأرض، * لم تمض الساعات الست حتى كان الجنود و

القادة ، معًا علي رمال سيناء يبدعون أسطورة الحسب الوطني الخالص.

[٦]**"لقد كان لعبور القادة مع القوات إلى الضفة الشرقية أكبر الفضل في تحقيق النجاح إذ عبر جميع قادة الكتائب المشاة القناة إلى الضفة الشرقية بعد خمس عشرة دقيقة من بدء الاقتحام أي حوالي الساعة ١٤٣٥، كما عبر قادة الألوية و معهم قادة المدفعية المناظرين لهم في الساعة ١٥٠٥، أما قادة الفرق المشاة و قادة مدفعيتها فقد عبروا بعد مضي ساعة و نصف من بدء الاقتحام أي في الساعة ١٥٥٠"**

"تتعرف مصر على وجهها في مرايا سيناء

تقرأ اسمها في كتاب الشهادة

تقرؤه على معاطف الجنود المسافرين إلى الضفة الثانية للكبرياء...

تكتشف مصر صوتها في رصاص مقاتليها

لا في حناجر مغنيها"

نزار قباني

---

[٦] *(كتاب حرب أكتوبر، اللواء طه المجدوب، الباب الرابع، الفصل الأول ، صفحة : ١٠٩)*

من تقرير الفريق أول أحمد إسماعيل، وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، حول حرب أكتوبر:

[٧]"أما عن القوات البرية، فمهما حاولت أن أوفيها حقها فلن أنصفها. فلو نظرنا إلى الجيش الثانى الميدانى الذى يتولى قيادته حاليًا اللواء فؤاد عزيز غالى، واستعرضنا فى اختصار تام كيف اقتحم القناة على مواجهة تربو على التسعين كيلومترًا، فى وقت واحد وبنظام وسيطرة رائعة أذهلت العدو والعالم. ويكفى هذا الجيش فخرًا أنه فى خمس ساعات كان له فى شرق القناة ما يزيد عن ٥٠,٠٠٠ مقاتل – هذا الجيش الذى دمر وقتل وأسر من العدو ما لم تكن تتخيله إسرائيل، والذى أفنى، بإحدى فرقه، لواء مدرعًا كاملاً واستسلم قائده* مشيدًا بكفاءة الجندى المصرى وقدرة القيادة المصرية. كما يسجل لهذا الجيش وللفرقة المشاة الثامنة عشرة، أنها محررة القنطرة شرق، ومعيدة علم مصر الغالى يرفرف فوق ربوعها عاليًا خفاقًا"

* قائد اللواء عساف ياجورى

٧ (المصدر: "الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٤، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، مج ١٠، ص ٤٧ - ٤٨")

البلاغات العسكرية المصرية التى صدرت: عـــن القيـــادة العامة للقوات المسلحة فى اليوم الثالث من الحرب

(المـــصدر موســـوعة مقاتـــل مـــن الـــصحراء، www.moqatel.com)

القاهرة: ٨ أكتوبر ١٩٧٣بيان رقم ١٦

(أذيع فى الساعة التاسعة و عشرة دقائق مساءً)

بسم الله الرحمن الرحيم: عاد العلم المصرى مرة أخرى إلى مكانه العزيز فوق المدينة الثانية فى سيناء كلها و هى القنطـــرة شرق و ذلك بعد أن تم تحريرها بواسطة قواتنا المـــسلحة – و كانت أهمية عملية تحرير المدينـــة راجعًـــا إلى أن القـــوات المصرية كانت تراعي اعتبارين فى نفس الوقت و هما تـــدمير قوات العدو فيها و المحافظة على أرواح المـــواطنين المـــصريين الذين بقوا فيها يعانون من ظروف الاحتلال – و لتحقيق هذا الغرض تم حصار المدينة داخليًا و خارجيًا ثم جـــرى اقتحـــام شوارعها و دار القتال مع جنود العـــدو فى الـــشوارع و المبانى حتى انهارت قوات العدو و استسلمت .....

و قد استولت القوات المصرية على كميات كـــبيرة مـــن سلاح العدو و عتاده بينها عدد من دبابات السنتوريان ال

A.M.X و أسر عدد ٣٠ فردًا للعدو أحياء و هم كل من بقي بالمدينة، وكانت فرحة المصريين داخل المدينة بعـــد تمــام تحريرها فرحة كبرى بإخوتهم المقاتلين المصريين من أجل شرف الوطن و عزته .و تعبر القيادة العامة للقوات المــسلحة عــن اعتزازها باشتراك هؤلاء المواطنين عمليًا فى مساعدة قـــواتهم المسلحة و كان جهدهم معها و عونهم لها رمزًا للتلاحم بـــين قوى الشعب و ينتظر أن تنتقل محافظة سيناء لمباشرة عملها من المدينة المحررة فى أسرع وقت.

البلاغات العسكرية المصرية التى صدرت فى اليوم الرابع من الحرب

القاهرة: ٩ أكتوبر ١٩٧٣ البلاغ رقم ١٩ :

(أذيع فى الساعة العاشرة و ٢٣ دقيقة صباحًا)

بعد أن أتمت قواتنا الاستيلاء على الشاطئ الشرقي لقنـــاة السويس بالكامل تتقدم تشكيلاتنا على طول المواجهة وقـــد وصلت صباح اليوم إلى مسافة ١٥ كيلومترًا داخل ســـيناء. ودمرت أثناء تقدمها جميع المواقع التى كان يتمركز بها العـــدو وكبدته خسائر فادحة فى الأفراد والمعدات.كما فرت فلـــول كثيرة منهم تاركين مواقعهم وأسلحتهم وذخيرتهـــم. ووقـــع الكثير منهم فى الأسر ويقدر عددهم بالمئات.

البلاغ رقم ٢٠ :

(أذيع فى الساعة العاشرة و ٤٠ دقيقة صباحًا)

أثناء تقدم قواتنا صباح اليوم داخل سيناء قامت قواتنا بمعاونة تشكيل من قواتنا الجوية بتدمير اللواء ١٩٠ المدرع المُعادى تدميرًا كاملاً وتم أسر قائده العقيد عساف ياجورى.

اتركوه يؤذن

هو أول قائد عسكرى رفيع، مصرى مسيحى الديانة، يحقق فكرة المواطنة بدون ضجيج، بدون مزايدة و بدون استباحة الانتماء المقدس إلى التراب الذى أنبتنا مقابل مكسب رخيصة مهما بلغت.

فالرجل استطاع أن يرسخ بلا افتعال ارتباط الجنود و الضباط به انطلاقًا من مبدأ المصرية التي لا نستطيع إنكارها على أى منا. بحق الماء الذى يروينا و اللقمة الهانئة التي تسد رمقنا و لو كنا مائة ولو كانت مجرد لقمة "فول مدمس" تشتهيه النفس على مقامها غنى أسطوريًا مروعًا أو دنى فقرًا مستديمًا مدقعًا. بحق ظل الشجر الذى يحتضننا فى ظهيرة يوم هجير و كوب عصير، لمون بتزهير أو قصب مثلج يحلى طعمه مرارة الأيام.

تزامن أكتوبر ٧٣ مع صيام رمضان، و بتلقائية كثيرًا ما شارك جنوده سحورهم و إفطارهم (شهادة من جنود و ضباط خدموا معه)، مجتمعين سويًا لا فرق بين القائد و الجنود، فالسماء التى تظلهم واحدة و الأرض التى يفترشونها واحدة، و المدافع

التى تهدر حولهم واحدة، و المصير انتصار كان أو موتًا هو الآخر واحدًا.

"لم نعرف أبدًا أى تمييز بين (طـــنط أم عبـــده) أو (طـــنط إيزابيل)، و كانت أمى تحيك لنا بنفسها فساتين جديدة، أربـــع فساتين لأربع أعياد، لى و لأختى كل عام فى تزامن مع الأعياد الدينية الأربعة التى كنا نحتفل بها جميعا وهى: عيد الميلاد، عيـــد الفطر، عيد القيامة و العيد الكبير (الأضحى). لقد كنا شديدى الارتباط بصديقاتى من عائلة الأتربي و كان من المقدس أن نحتفل جميعًا بكل الأعياد و بفساتين جديدة. كان ذلك بالنـــسبة لنـــا طقسًا طبيعيًا و عفويًا." ابنة الراحل: السيدة/ نجوى غالى

[٨] "الفريق فؤاد عزيز غالي..

لقد كان الفريق فؤاد عزيز يضرب المثل لضباطه وجنـــوده فى الشجاعة والإقدام ويتضح ذلك من ذكرياته التى رواها عن حرب أكتوبر فقال: أنه فى يوم١٦ أكتوبر كان القتال يـــدور بعنف وكنت أراقب المعركة من مركز القيادة المتقدم للفرقـــة وصدر الإنذار بغارة جوية إسرائيلية، وكـــان أحـــد عمـــال الإشارة فى فتره راحة يصلى الظهر فى العراء، ونـــادى عليـــه أحد ضباط الصف لكى يسرع بالاستتار فى خندق المواصلات

---

[٨] الاهرام العسكريون المصريون العظام من مقال ممدوح شعبان ، ٢٠٠٢/٧/١٤

أو فى أحد الملاجئ، ولكنه لم يسمعه واستمر فى الصلاة، وبدأت القنابل تنهال على مركز القيادة المتقدم، وأظلمت الدنيا من حولى، وكنت أتنفس بصعوبة و أنا أسند بذراعى خندق المواصلات حتى لا ينهار على ومر الوقت وبدأت الرؤية تتضح، وخرجت لأشاهد ما أصاب مركز القيادة المتقدم، ففوجئت بأن الجندى مازال مستمرًا فى الصلاة ولم يصب بأى خدش بينما أصيب بعض من لجئوا إلى الخنادق بشظايا وحروق".

اللواء مصطفي الدريني: "شاهدت بعيني تلك الواقعة، و كنا فى هذه الفترة من الحرب فى موقف صعب إذ كانت الغارات الإسرائيلية (منذ اليوم الثالث عشر من أكتوبر) قد تكاثفت علينا و على مركز قيادتنا بشكل غير مسبوق، ظلت الغارات يومها من الضوء إلى الضوء، أى يومًا كاملاً فى هجوم لا ينقطع، و قد صمدنا لهذا القصف المتواصل. فكان أن قام هذا المجند بالآذان لصلاة العصر وقت الغارة، و حاول منعه بعض الضباط المسلمين لخوفهم عليه بالطبع من تعرضه للنار بشكل مباشر هكذا، إلا أن العميد غالى صاح بهم: " اتركوه اتركوه يؤذن لن يصيبه شئ"

كان رحمه الله يؤمن بأن من يلجأ لله يتصل به الله و يحميه، و كان يؤمن أن الله يسمع من يلوذ به أيا كانت اللغة و طريقة التعبير.

المنيا ١٩٢٧ : المكان و تاريخ الميلاد محملان بعبق الروح المصرية

المنيا بداية القرن العشرين

صعيد مصر: المخزن الوافر للرجال، المغروسة جذورهم بعمق التاريخ فى عمق الأرض المروية بعرق الأجداد قدر ارتواؤها بالنيل.

شمس الصعيد الحارقة المنعكسة على وجه رمسيس الفرعون يوم ميلاده و يوم تتويجه الملكى تنعكس منذ آلاف السنين يوميًا على الوجوه الصعيدية تعمدها بحب الأرض و الناس الجيرة و النهر.

النيل المتهادى اليوم و الرزق المبسوط من بين أيادى الله، هو ذلك الهادر الغاضب المتوحش الذى تم استئناسه على أيدى هؤلاء البسطاء المعاندين، المتحدّين، المتّحدين، العاملين بكل جد و جلد معا لترويضه فى القدم.

كام اشتغلت يا نيل في نحت الصخور

مليون بنونه وألف مليون هاتور

يا نيل أنا ابن حلال ومن خِلفتك

وليه صعيبه عليّ بس الأمور عجبى!! صلاح جاهين

و غير بعيد ما بين النيل و الأرض المزروعة، الصحراء المحيطة، الآثار الشاهدة على حضارة عبقرية، فى "المنيا" المدينة التى تتفتح على نسق القرن العشرين البادئ، كان الميلاد.

١٩٢٧

ثمان سنوات بعد العام ١٩١٩، بعد اندلاع الثورة الشعبية الوحيدة فى تاريخ مصر، التى تحققت وأثمرت بسبب و بفضل المصريين: الشعب الغير مسلح، المدن الغير معسكر، من الرموز، الفلاحين، الصعايدة، الموظفون، التجار، الطلبة، الشيوخ الأزهريين والكهنة القساوسة، نساء مصر اللاتى تحدين القيد و الحرملك الوافد على حضارتنا المصرية الفرعونية التى قدست المرأة وألهتها: إيزيس، الزوجة الأم، الإلهة رمز الخير، الإخلاص، النماء و الانتماء.

يثور الناس كل الناس،أمواج البحر الأعظم أو مظاهرات المصريين الثائرين و يهتفون لسعد أيقونة الوطن.

فى هذا المناخ ولد جيل القادة، و منهم **غالى**، الجيل الذى سيصمد رغم الهزيمة، يتكاتف مع أجيال سبقته و أخرى ستليه، ليحرروا جميعًا سيناء و يعيدون للبلد كرامتها.

[٩]"... قال المشير أحمد إسماعيل لقائد فرقتنا الصعيدى القبطى فؤاد عزيز غالى:- "إنت يا فؤاد مكتوب على جبينك القنطرة". وفى التو ترك العميد فؤاد منصبه كمساعد لقائد الجيش الثانى واتجه لقيادة الفرقة ١٨ حيث وضع خطته للاستيلاء على المدينة والسبع نقاط الحصينة المعادية التى تحميها بالمواجهة وعبثًا حاول المشير أحمد إسماعيل واللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني إثنائه عن خطته ليكون هجومه بالالتفاف حول المدينة إلا أن الرجل صمم ودرب ضباطه وجنوده علي ما خطط له وهو الهجوم بالمواجهة ونجح... ومع البيان رقم ١٦ وصباح الاثنين ٨ أكتوبر.. كنا داخل المدينة.. "

"نحتمى من الشظايا ببيوت المدينة فتنهار فوق رؤوسنا ، نطهر المدينة ونطارد فلول العدو المتراجع أمامنا. ٣٧ دبابة تركها العدو أمامنا وفر"

"كانوا معى فى الحفرة يفترشون الرمال محمود مختار شقيق حسن مختار مدرب حراس مرمى المنتخب الوطنى وخليل الصعيدى وعبد الصمد الفلاح وعلى العجوز.. ومرت فوقنا طائرة معادية منخفضة وألقت فوقنا قنابل البلى المحرمة دوليًا

---

[٩] الجيل السوبر ابطال حرب اكتوبر (بتصرف) الحوار المتمدن عدد ٦١٨ ١١/١٠/ ٢٠٠٣بقلم: جلال عامر الكاتب بجريدة القاهرة

(دائمًا إسرائيل تخالف القوانين الدولية) استشهد خليل وأصيب البطل محمود مختار إصابات بالغة..."

" أما أنا وإسماعيل سليمان ومحمود مختار وغيرنا فقد دربنا فؤاد عزيز غالى على القتال بالمواجهة لهذا لم يستطع أحدنا أن يجارى سياسة الالتفاف فتلاشت أسماؤنا لتلمع أسماء عثمان وتوفيق وعلية ولكح والبليدى ودوارف والحباك وغيرهم من أبطال المرحلة الجديدة".

فؤاد فوزى عزيز غالى، اسم اختاره الأب، مدير بنك التسليف بشبين الكوم، ليكون رنانًا، عندما يكتب على يافطة العيادة الشهيرة بأحد أحياء القاهرة الراقية.

فؤاد فوزى، اسم طبيب عظيم إن شاء الله، لذلك الطفل اليتيم، الذى فقد والدته و هو بعد لم يتعد الرابعة، و جاء إلى القاهرة، فى حي شبرا ليقيم مع إحدى القريبات حتى ترعاه. هكذا رسم الأب صورة مستقبل ابنه ، الذى كان المستقبل قد كتب له بشكل آخر.

الطفل فؤاد غالى، الممتلئ حيوية و شقاوة، يكبر فى هذا الحى المعبر عن ثقافة و وجدان و كينونة الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة، الشديدة المصرية، الجامعة، المانحة، المتصالحة مع نفسها ومع الآخرين، التي تذيب الأوروبى المولود هنا فى شبرا مثل داليدا و استفان روستى، فى معجون تراب و عرق مصرى، يجعل من إفيهات روستى كلمات مأثورة محفورة فى ذاكرة

المصريين، الذين لا أعتقد أن أحدهم يتذكر أن روستى لم يكـــن مصريًا بواقع الجنسية و العرق المنحدر منه. لكننا لم نعرف رجل اكثر منه تجسيدا للمصرى الشرير الخفيف الدم رغم نذالته الـــتى ينفرد بها علي الشاشة. من منا لا يضحك كلما تـــذكر جملتـــه الشهيرة: "نشنت يا فـــالح" أو "كـــده ! طـــب أروح أتحـــزم و أجيلك"

القاهرة ١٩٤٦

القاهرة الأوروبية المظهر و التمدين، قاهرة عبـــد الوهـــاب، محمد فوزى، استفان روستى، ليلى مراد، داود حـــسنى، نجيـــب الريحانى و بديعة مصابنى و غيرهم.

حيث تحتل الواجهات الأنيقة للمطاعم، المسارح و المقـــاهى الراقية خلفية المشاهد. العمارة الفريدة المازجة بـــسخاء روعـــة المعمار الإيطالى و الفرنسى و غيرهما، من الإبداع الإنسانى مـــع مآذن الجوامع و أبراج الكنائس المتداخلين جميعًا فى سمائها.

قاهرة الطبقة الوسطى والأرستقراطية العريقـــة، الزمالـــك وجاردن سيتى، بقصورها وحدائقها العامة التى تماثـــل وتتفـــوق أحيانًا على جمال مثيلاتها بـــدأ مـــن التـــويليرى إلى حـــدائق لوكسمبورج بباريس.

و هى أيضًا قاهرة الأزهر و السلطان حسن و الغورية، زقاق المدق، دير القديس .... بالمغربلين، شجرة مريم بالمطرية، ديـــر السرجة بمصر عتيقة.. قاهرة شـــكوكو بقـــزازة، منولوجـــات

إسماعيل يّس و خفة دم القصرى، موال عبد المطلب، غربة عبده السروجى و حنية صوت عبد الغنى السيد، شارع محمـد علـى والعوالم ، الأوبرج حيث يسهر مولانا و النبلاء.

مدارس الإرساليات الفرنسية، ونوادي الطبقة الراقيـة مـن الجزيرة إلى كلوب محمد علي، القهاوى البلدى التى تفترش كل ناصية و كل حارة حيث الـدومانو و الشيـشة و الـشاى فى الخمسينة، و الراديو الكبير الذى يطرب الرواد الفقراء بوصـلة تحييها الست أول خميس من كل شهر.

القاهرة حيث يجتمع المصرى الأصل و المصرى النـشأة، لا تفرق بينهم تحبهم جميعًا، و إن ولدوا بعيدًا عنـها فى أثينـا أو باريس أو أرمينيا أو روما أو أية مدينة أخـرى، هنـا القـاهرة توحدهم رغم تعددهم وتناقضهم أحيانًا.

القاهرة الأربعينية التى تجسد العبقرية المصرية يجوبها الـشاب فؤاد غالى، أوراق التقدم لكلية الطب بين يديه، و كما هو متفق عليه و مخطط له بعد النجاح فى التوجيهية.

ماذا دفعه للمضى نحو الكلية أو المدرسة الحربية، و الوقـوع فى أسرها عشقًا، و التقدم إليها لاغيًا مشروع الطب للأبد؟!!

أنداء خفى همس إليه أن هاهنا بداية الطريق إلى الخلود؟ وأن سيناء منذ اللحظة ستكون سكنه و مكانه فى أغلب الأوقـات؟ ذلك الصوت المنبعث من الداخل كهاتف يغير مجرى حياتنا بعد أن نرتب و نخطط و لا يتركنا إلا و قد تخلينـا عـن المـستقبل

المخملى، حينما كان الطبيب هو ذلك الإله الصغير الذى يمتلك أسباب العيش الرغيد، و يجعلنا نمضى بقوة فى اتجــاه معــاكس تكون الحياة و الاحتفاظ بها هو محض صدفة لأن الموت يكــون هو القاعدة العامة على جبهات القتال.

أم تراه القدر؟

[10] " فى حياة مصر رجال شربوا من ثدى النهر ووضــعوا الهـــرم فى صـــدورهم مكـــان القلـــب

أغلى الرجال الفريق فواد عزيز غالى محرر القنطــرة شــرق والفريق غالى من مواليد المنيا سنه١٩٢٧، وعندما حصل على الثانوية جهز أوراقه لدخول كلية الطب التى كان يعــشقها، وعندما مر في أحد الأيام أمام الكلية الحربية وجــد أن بــاب القبول مفتوح فتقدم بأوراقه، والتحق بها، وبعد تخرجه بأيام تم إرساله للمشاركة فى حرب فلسطين، فى معارك حول مدينـــه غزة ورفح وشارك فى حرب٥٦، وفى حرب٦٧ كان رئيــسًا لعمليات الفرقة الثانية مشاه وفى حرب أكتوبر المجيــدة كــان قائدًا للفرقة(١٨) مشاة والتى عبرت قناة السويس، وحررت مدينة القنطرة شرق، ودمرت أقوى حصون خــط بــارليف، والتى كانت تتحكم فى قناة السويس، وظــل محافظًــا علــى انتصاراته طوال فترة الحرب، كما قام بتأمين منطقـــة شمــال القناة من القنطرة إلى بورسعيد فى مواجهة الهجمات المــضادة

[10] جميل عفيفي ٢٠٠٣/١٠/١٥ الاهرام

الإسرائيلية.يوم١٢ ديسمبر من عام٧٣ عُيِّن قائدًا للجيش الثاني الميداني، ليقود مع باقي القوات المسلحة المصرية معركة تدمير العدو فى الدفرسوار وقد أبلى فيها مع قواته البلاء الحسن. لقد كان الفريق عزيز غالى رمزًا للعزة والكرامة للعسكرية المصرية، حصل على حب جنوده لأنه لم يفرق بين مسلم ومسيحى، وهو مثال حقيقى للوحدة الوطنية المصرية".

غزة ١٩٤٨

أول القصيدة: ... حرب. ترى ما هو شعور الشاب المتخرج لتوه يزهو بنجوم تلمع على كتفيه، وبهيئة ضابط وسيم فى نهاية أربعينيات القرن الماضى، كصورة أنور وجدى يخفق لها قلب فتيات يشبهن فاتن و ماجدة و راقية إبراهيم، وإذا به يجد نفسه مع زملاء دفعته فى قلب المعركة التى تدشن حروبنا مع الدولة الإسرائيلية، الصهيونية التوجه و التأسيس. ليشهد الشاب المصري **فؤاد غالى** مع جيله كل الحروب التى خاضتها مصر فى القرن العشرين. وبالنسبة له شخصيًا تصبح الجبهة والصحراء هى المكان الذى سيلازمه منذ سطوع النجمة الأولى وحتى لمعان السيوف والوصول لرتبة فريق و قيادة الجيش الثانى.

الاتحاد السوفيتى ١٩٥٣

الدراسة فى الاتحاد السوفيتى كانت من سمات الفترة المؤسسة لمجتمع الستينيات. فعلى المستوى الفني كما على المستوى العلمى

و العسكرى، كانت معبرًا لإبراز الكثير من ماسات مـــصر، فى شكل عازف بيانو بمثل حساسية و براعة رمزي يـــسى، أو فى هيئة شاعر ، مسرحى، مبدع ، مبهج وموجع مثل نجيب سرور. كذلك كانت على مستوى القادة العسكريين العظام أمثال غالى و أحمد بدوى.

الجبهة السورية ١٩٥٩/ ١٩٦١

الوحدة بين مصر و سوريا، صورة عبد الناصر و قد حملـــت الجماهير المندفعة من فرط حماسها العربة الـــتى تقلـــه، حمـــاس الجماهير المبنى أساسًا على تأثير شخص "ناصر" ذو النظرة الآثرة، البطل الأسطورى، الآتى عبر الأزمنة المولودة فى ظل الاســـتعمار الممتد بعمر أجيال لا تعرف مداها، الرمز الكامل للحرية.

الوحدة التى جعلت حلم الوطن الأكـــبر الأقـــدر، أقـــرب، وجعلت من الجيش الأول، وقتها، مكانه فى الجبهـــة الـــسورية، لتحتفظ مصر بالجيش الثانى و الثالث، و يكون الرابع و الخامس مرة أخرى سوريا.

الوحدة التى كانت من البديهيات بحكم المكـــان و التـــاريخ و الثقافة و تداخل الأعراق والدماء والحضارات، بحكم وحـــدة اللغة ووحدة المأزق على كل الأصعدة.

هناك كان للجيش المصرى مكانه على الجبهـــة الـــسورية وقت المد الثورى القومى الحالم.

و كأحد أفراد هذا الجيل كانت الجبهة السورية واحدة من المحطات التى استقبلت الضابط المصرى: فؤاد غالى، وامتدت الأيادى المصرية تبنى مع السوريين الجيش الذى سيحرر البلاد و ينقذ العباد من بطش القوى الإمبريالية الاستعمارية المتصهينة.

هكذا كان الحلم وما لبث أن استقر فى خانة الأحلام، لأن الحماس و الهتاف لم يكن للمبدأ بل كان للأشخاص.

"سوريا: شباك البيت الكبير من خلاله أرى تمثال عبد الناصر، لازلت أذكر تفاصيل الأثاث البسيط الذى كان يضمه البيت، و كالعادة كنت و أمى دائمًا فى انتظار أبى، الذى جاء إلى سوريا كواحد من العسكريين المصريين المتميزين لبناء وتدريب الجيش السورى، ما لم نكن نتوقعه هو ما حدث من تذمر و انقلاب على الوحدة حتى أننى رأيت هذا التمثال يتم تكسيره، و تم ترحيلنا سريعًا بالحافلات إلى لبنان ثم بالطائرة إلى مصر، كان يوم عصيب، لكننى لازلت أرى دموع السوريين الناس العادية، كانوا يبكون رحيلنا بشدة" السيدة / نجوى غالى

ماتت الوحدة، أو بالأحرى وئدت وهى لم تزل وليدة وحملت وزر موتها الأنظمة التى فضلت المصالح الصغيرة الآنية والفردية مقابل المصلحة الجمعية و لم تنتصر للأحلام المشروعة للجماهير التى كانت تهتف و تندفع واعدة أنها بالروح و الدم ستفدى ... ، ستفدى الزعماء.

و لم يكن للأوطان نصيب فى هذه الوعود، لذا مـــا كـــادت الصراعات على الزعامة تطل برأسها حتى اختفت من الوجـــود مشاريع استراتيجية كان يمكن أن تؤســس للوحـــدة العربيـــة الكبرى.

بينما ظلت أوروبا تتابع بمثابرة المشروع الأكبر فى تاريخها من السوق المشترك إلى الوحدة الشاملة.

الاتحاد الأوروبى المزدهر، المولود لأوروبا المتناحرة المتقاتلـــة على مدى حربين عالمتين و لم يكد النصف الأول مـــن القـــرن العشرين ينصرم، المحمل بكل جروح ماضى بعيـــد يغـــوص فى الأعماق، ما بين حروب المائة عام، الحروب الفرنسية الإنجليزية، الإنجليزية الأسبانية، نزاع و اضطهاد طـــائفى وثـــورات دينيـــة وطبقية،صراعات عرقية وإبادات إثنية، كلها لم تمنع صوت العقل المتجرد عن الأهواء و الأفراد و حتى عن التاريخ.

وتبقى الأنانية الذاتية المفرطة فى الشخصنة، التى ترى العالم فى حدود ظلالها الضيقة و المتناسية منطق المصالح العليا، هـــى مـــا يحطم الأوطان كبيرة كانت أو صغيرة، وينسحب تأثيرهـــا مـــن الوحدة القومية إلى الوحدة بين أبناء الوطن الواحد.

فهل من يسمع؟ هل من يفهم؟ هل من يستجيب؟

"و منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه".

نجيب سرور

[11] "كما كان الجيش يضم الآلاف من عنصرى الأمـــة أى من المسلمين والأقباط، وكان الأقباط ممثلين فى الجيش المصرى فى جميع مراكزه ووحداته، بما في ذلك فى قياداته العـــسكرية العليا.

بل إن من اللافت فى هذه الحـــرب بالـــذات أن الهجـــوم المصرى قام به جيشان أساسيان هما الجيش الثانى الميدانى بقيادة اللواء فؤاد عزيز غالى وهو قبطى (مسيحى) والجيش الثالـــث الميدانى بقيادة اللواء احمد بدوى وهو مسلم، وقد استشهد فى هذه الحرب ثمانية آلاف جندى مصرى وجرح أكثر من هـــذا بالطبع، ولا نعرف نسبة الأقباط فى هؤلاء وان كان المـــرجح هو أنها تعادل بالتقريب نسبتهم فى الجيش وفى المجتمع المصرى بشكل عام، وكانت معركة العبور ملحمة وطنية باهرة مـــن جميع الوجوه، جاءت تأكيدًا لصلابة وحدة مصر الداخلية أمام الأخطار الخارجية."

اليمن ١٩٦٣

اليمن: الحرب التى أتت علي خيرة جنود و ضـــباط مـــصر و منهم مؤسس و أبو الصاعقة المصرية الشهيد/ نبيـــل الوقـــاد،

---

[11] الصدمة والترويع المصرية – الحوار المتمدن عدد ١٣٦٥ ٢٠٠٥/١١/١ بقلـــم:– فرانـــسوا باسيلي

و غيره كثيرين، استنفدت قوى و عتاد و عناصر بشرية كـــان يمكن أن تغير مجرى الأحداث فى الخامس من حزيران الحزين، تم الدفع بأحسن عناصر المقاتلين و الضباط لحرب استمرت بـــين جبال اليمن أكثر من أربع سنوات، و كان من الضرورى أن يمر بها ضابط فى كفاءة غالى.

أحد شهود العيان لهذه الحرب الباقين ذكـــر لى قـــصة قـــد تلخص ما عنته حرب اليمن و أثارها المدمرة:

"كان مجند بسيط، فلاح من أكثر مناطق مصر فقرًا، و كان يخدم معى، لم يحتمل جهازه العصبى ما كان يراه مـــن تـــساقط لزملاء و ضباط و اغتيالات لكوادر على أعلى حرفية عسكرية، المهم أنه أصيب بشئ من الانهيار العصبى، و ظل يردد أننا خشب و اليمن دى سوسنا".

سيناء / القسيمة ١٩٦٧

"عندما حدث ما حدث فى العام ٦٧، عاد أبى إلى المـــنزل فى زيه العسكرى بدون رُتبه ككل الضباط وقتها، و فى حالة نفسية شديدة السوء، حزن ووجع يكسيان ملامحه. لم ينظر لأى منا، نحن أبناؤه الأربعة، لم ينظر إلى عيوننا و تجنبنا تمامًا الفترة القصيرة التى مكثها بالبيت ثم توجه من فوره إلى الاجتماع الذى دعـــت إليه القيادة العسكرية العليا فى حينه.

و انتظرنا عودته لكنه لم يستطع بل توجـــه مباشـــرة مـــن الاجتماع إلى الجبهة.

لم أر أبي أبدًا فى مثل تلك الحالة لا من قبل و لا مـــن بعـــد ذلك اليوم"

السيدة/ نجوى غالى"

الاستتراف ٦٧/٧٠

أنا كنت عيدك

"تنقص نجوم السما أزيدك ..... الفجر يغرق احد بإيدك

و اجمع سواد الألم فى عينى .... واصب نـــبض الهـــوى فى وريدك"

كلما استمعت إلى أغنية الحجار كلما قفز إلى مخيلتي الجنـــود والضباط المنتظرين لوفاء الدين والحب. لمدة ست سنوات طوال كأنها ليلة سهد طويلة لا تنتهى فى انتظار رؤية وجه المحبوبة.

لم أفسر يومًا كلماتها على أنها مجرد عشق شخصى بقدر مـــا كنت متيقنة أن لها ظلال حب وطنية لا تصدر إلا ممـــن كابـــد التضحية و انطلق يومًا ما يموت فى سبيل بلده.

تعبير صادق عما حدث:

إذا كفرت بسحر صوتي، أغنى رغم العطش نشيدك

و إذا نسيتى هتكون نهايتى و إذا وفيتى هكون شهيدك

توصيف دقيق لما هو حادث:

"تكتب سنين الخرس نهايتك"

وأمنية فى المستقبل قد تحدث:

"انطق بسر الوجود أعيدك

و كل ما أرحل هتكونى غايتى

وكل ما أرجع هكون وليدك"

عام الحسم / عام العزم

لم يكن الطلبة فى ميدان التحرير هم فقط من نادوا بـالتحرك لخلخلة الموقف المتجمد المعنون بحالة "اللا سلم و اللا حـرب" وصف للأشياء بنفي توصيفها؟؟!! فالأشياء تسمى بكينونتـها وليس بانتفائها، فما نمر به إما هى حالة حرب و إما هى حالـة تسليم و ليست سلم بأى حال من الأحوال.

هكذا كنا نرى الأمور على حقيقتها، و هكذا كنا نريدها بلا زيف، بلا تجميل، بلا تهوين أو تهويل، فكفانا ما اجتزناه من محنة محت كل الثوابت فى حاضرنا، و قضت على أحلام مستقبلنا بل أقول مستقبل أجيال كثيرة من بعدنا.

لم نكن نعرف للحياة طعم ناهيك عن البهجة. كنـا كمـن كتب عليه ثأر لا مفر منه، إما قاتل أو مقتول لا سبيل لأنصاف الحلول و لا ينقذ منه تقديم التنازل عن الكرامة بالكفن. إنه ثـأر لا ينفع معه التسامح، لأنه لم يكن يتعلق فقـط بمـن عاصـروا

الهزيمة، لكنه امتد فى التاريخ الماضى لمن حلموا بـــوطن كـــريم مستقل و إلى المستقبل لمن سيولدون و لا ذنب لهم لكى يثقلهم ميراث عار لم يسعوا إليه.

كنا على استعداد حقيقى للموت فليـــست هـــذه بحيـــاة لا نستطع فيها النظر إلى عيون الزوجة و الأبناء بل و لا حتى الناس العادية المارة فى الشوارع.

كنا نريد أن "نخلص" و لو متنا جميعًا، و لو هزمنـــا و نحـــن نحاول بجدية استحقاق الانتصار فسيكون شرف لنا نتركه للأبناء ميراثًا: أننا على الأقل متنا شهداء و لم نمت متحجـــرين انتظـــارًا ويأسًا، ووقوع البلاء و لا انتظاره كما يقولون.

إن موقعنا على الشاطئ الغربى للقناة و رؤيـــة الإســـرائيليين يرتعون على ضفة سيناء الشرقية مع ما يمثله لنا من مهانة كنـــا نختزنها وكل ما يمكن أن يستفز فينا معنى الرجولة و الغيرة علـــى الوطن الأم، الزوجة، الابنة، العرض و الشرف، مخزونًا يدفعنا إلى التفانى فى التدريب و السهر والعمل المتواصل والمبيت بالأسابيع و الشهور و السنين فى الصحراء.

هنا على الجبهة أمام العدو المتباهى بسرعة انتصاره المعتمـــد على سوء تخطيطنا و اعتمادنا على المعلقات الشعرية من نـــوع "أمجاد يا عرب أمجاد" و منطق:

"إن العدو الحقيقى هو الاستعمار والإمبريالية العالميـــة الـــتى تساند الصهيونية فأوجدت هذا الكيان الهش المسمى بإســـرائيل والتى سنرميها هى و من يتشدد لها فى البحر".

و بما أن السواحل فى عالمنا العربى تمتد من الماء إلى الماء، من المحيط إلى الخليج فما أسهل مهمتنا إذاً. هذيان حقيقى و لا فعل واحد.

إن ما حل بنا فى العام السابع و الستين من القرن العشرين، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لسوء الإعداد و اعتماد مبدأ أهل الثقة و استبعاد بل و العداء الواضح لأهل الخبرة و العلم.

كما لم يكن أيضًا جزاءًا سماويًا وفاقًا لتسلحنا من المعـــسكر الشرقى وقتها، و الارتكاز على قوة الاتحاد السوفيتى، يستوجب ركعتين شكر لأن النصر لم يأت بـــسبب مـــساندة الملاحـــدة والشيوعيين!!! كما ادعى بعض الشيوخ النازحين إلى أحـــضان الحجاز الوهابى.

لكنه كان منطق الأشياء فى أوضح صوره.

نحارب و نموت بس نخلص

اللواء/ مهندس مصطفى الدرينى:

"مضى عام الحسم و بعده عام العزم و كـــل الأسمـــاء الـــتى أطلقوها فى هذه الفترة، لكن ذلك لم يخفف من وطأة الـــشعور

بثقل الانتظار، يعنى هى موتة و لا أكتر، فلنمت و نحن فى ساحة المعركة، فلنمت ونحن كرماء"

الناس كل الناس كانت تغلى و تتألم بسبب الانتظار، خلف قضبان سجن الهزيمة، الذى حكم على أمة كاملة بإعدام أملـــها، مستقبلها، يجعل استقبال الموت أهون من الحيـــاة الميتـــة الـــتى تكبلهم.

سنوات الجبهة بين الانتظار و الانتصار

المهندس/ يسمو يعقوب

أول يوم استلم فيه الفرقة الساعة ٩ مساءًا

الساعة التاسعة مساءًا تم تسليم القيادة الجديدة للعقيد الـــذى تمت ترقيته وقتها إلى رتبة عميد لتسلم قيادة الفرقة ١٨ مـــشاة، ترك العميد مصطفى شاهين مكتبه و حل مكانه العميـــد فـــؤاد غالى. إذًا هناك تغيير فى القيادة، سنرى صباحًا مـــاذا ســـيكون الأمر، لابد أنه سيجتمع بنا غـــدًا. و لم أتوقـــع أبـــدًا أن يـــتم استدعائى لمقابلة القائد بعد خمس ساعات من استلامه موقعه.

"الساعة الثانية صباحًا؟؟!!"

صرخت بينى و بين نفسى مندهشًا وذهبـــت مـــن فـــورى لمقابلته، دخلت عليه المكتب كان منكبا علـــى عـــدة خـــرائط وظهر لى بوضوح أننا لن ننام الليلة.

"حسنا أرنى خطط و خرائط التجهيز الهندسى"

و انهال على بالأسئلة، وإذا به بعد استفسارات كثيرة ينظـــر مليًا إلي الخرائط و الملاحظات التي دونها ثم إلىّ شخصيا:

"أين إمدادات المياه؟"

"إنها تأتينا من الجيش يا فندم، إمداد المواسير و الطلمبات و..

و لم يعطني فرصة لإكمال الجملة، ثار بشكل عنيف،و تساؤل قاسى عن كيفية عدم الاهتمام بمثل هذه التفاصيل،و كيف نلقى بمسؤليتها على الجيش؟ يعني إيه الجيش؟ ألا نكون مستعدين نحن بكافة الإمدادت و الخطط البديلة في حالة حدوث أى ظرف أو هجوم:

"نحن في حالة حرب و لسنا في نزهة يا حضرة الضابط"

غضبت و لم أشأ أن يستمر النقاش و أنا في مثل هذه الحالة، و ظهر توترى و ما أعانيه فاستأذنت وسمح لى بالانصراف.

ذهبت لمبيتي و أنا أغلى:

" الساعة تجاوزت الرابعة،وهو لم يمر على استلامه الفرقة عدة ساعات و يحاسبني حساب الملكين و كأن الحرب دائرة، يـــا الله ماذا ينتظرنا معه؟؟"

في تمام السابعة وجدته يوقظني مبتسما يستأذنني في ود بالغ:

"ممكن أشرب معك القهوة؟"

و امتد بنا الحديث و بدأت بيننا الصداقة، هذا هو فؤاد غالى الذى أعرفه، و الذى كان يمتلك ملكة حقيقية يعرف بها كيف يدخل نفسية كل فرد من أفراد فرقته و يفهمها، و يعرف قدر كل منهم وقدراته و يجيد توظيفها، و لا يتهاون فى أية تفصيلة مهما بدت صغيرة أو غير واردة، فالنصر هدف ليس من أبجدياته احتمالات الإخفاق و الوصول إليه غاية حياته التى رهنها له.

اسألى عنه الإسرائيليين

ليلاً من العاشرة مساءًا يتفقد الجبهة و هو يشعل سيجارته، ومعه مهندس و ضابط استطلاع، يمشى من القنطرة للتينة ومن فوق الخندق العالى و ليس المنخفض ليراجع الخطط و يعاين المواقع ويفكر يدخن بشراهة، فصورته المطبوعة فى أذهان الكثيرين ممن أحاطوه لا تكتمل إلا بالسيجارة بين شفتيه

(يا فندم السيجارة يشوفوا حضرتك)

(يعني أموت طب ما هو الموت لو جه مش هاقدر أعمل له حاجة و مش هيحتاج للسيجارة علشان يشوفونا بسببها)

لم يخشَ يومًا الجانب الآخر، و كان الجانب الآخر يعمل له ألف حساب.

كل من قابلتهم بلا استثناء كانوا يدمجون هذه الجملة أثناء الحديث عنه: "اسألى عنه الإسرائيليين إذا أردت أن تعرف قدر الرجل الحقيقى"

و لماذا اسأل العدو عن قائد وطنى، إلا لكونه من البراعة و الاحتراف و التفانى فى وطنيته، ما يجعله عائق يصعب عليهم تجاهله، و لا ينقص من عداوتهم احترامه.

" ما هى خطوطه الحمراء؟" سؤال يتبادر إلى ذهنى

"البلد ، البلد يا ابنتى" يجيبنى المهندس يسمو

كلمة واحدة تحمل كل المعانى و تؤكد لى ما جعلنى أحب هذا الرمز و هذه الشخصية.

"ماذا كانت مميزاته؟"

"الحزم، اصراره و عناده للوصول إلى هدفه، كما كان مستمعًا جيدًا يصغى بوعى و اهتمام يدخل الثقة فى نفس من يحدثه و لو كان مجرد مجند، فما دام ما يقال نابع من فهم و عمل جدى فهو جدير بالإنصات"

شكرت المهندس يسمو و قبل انصرافى لمحت حزن عميق يكسو وجه محدثى، و سألته عما إذا كان يشعر بمرارة ما بعد حديثنا عن بعض ذكرياته على الجبهة، نظر إلى بعمق و قال: "الواحد حزين على حال البلد بعد كل ما ضحينا به، و حزين أكثر لأن أجيال كثيرة لا تعرف شيئًا عنها، تعرفى الواحد مرتبط بهذه الأرض أكثر بكثير من شباب اليوم، يمكن لأننا عشنا سنين

ندافع عنها، يمكن لأننا زمان تعلمنا أشياء تفتقدونها اليوم. أذكر أنني كنت في الخمسينيات طالب ثانوي في سوهاج وكان مدرس الجغرافيا اسمه الأستاذ مصطفى و كان لتوه عائدًا من بعثة في فرنسا و شرح و رسم لنا خريطة القطر المصرى كأبدع ما يكون و في اليوم التالي طلب منا أن يتقدم أحدنا ليعيد رسمها، لم يتحرك أي منا، و بدأ الأستاذ مصطفى يترعج، ثم ما لبث أن تحول انزعاجه لحزن و ألم عميق لتدمع عيناه وهو يقول لنا : خسارة لقد سأل أحد الأساتذة الفرنسيين، أثناء بعثتي، الطلبة إذا ما كانوا يستطيعون رسم خريطة فرنسا، فاحتج أحدهم قائلا: " كيف تتساءل؟ إنها محفورة في قلوبنا" ليغادر الأستاذ مصطفى الفصل وهو يقول "إننا لا نحب بلدنا بالقدر الكافي". ثم امتلأت عينا محدثي بالدموع وهو يتابع "ترى كيف سيكون شعوره اليوم عندما يرى مصر الآن".. و خرجت من مكتبه و أنا أتعجب من رقة شعوره تجاه البلد و احتفاظه بالتقدير لقائد مضى على العمل معه عشرات السنين. وقبل أن أمضى استوقفني و نصحني بمقابلة اللواء مهندس متقاعد مصطفى الدريني قائلاً: "إنه رجل عظيم وسيعطيك الكثير من المعلومات عن الفريق غالى فقد كان قريب منه في فترة الحرب".

[١٢] "ولكن بالرغم من الخسائر في الأرواح والممتلكات التي أوقعتها حرب الاستتراف على الجانب المصرى، فقد كانت ضرورية من الجهتين المعنوية والعسكرية معًا، فمعنويًا كان لابد

---

[٢] *الصدمة والترويع المصرية – فرانسوا باسيلي الحوار المتمدن عدد ١٣٦٥ ٢٠٠٥/١١/١*

على أثر الهزيمة الفادحة من إعادة بناء الثقة فى النفس بشكل تدريجى، وكان لا بد من المحافظة على سخونة خط المواجهة كإعلان مستمر من جانب مصر أنها لا تنوى قبول الوضع الراهن .. وكان عبد الناصر يلح فى كل خطبه على ضرورة إزالة آثار العدوان ولم يكن يتحدث عن استسلام من أى نوع، لكنه أعلن قبوله لسلام قائم على إعادة الأرض مع حل عادل للقضية الفلسطينية.

فى تلك الفترة قدموا لعبد الناصر ما عرف بمشروع روجرز، والذى يقضي بوقف القتال فى حرب الاستنزاف لمدة ثلاثة اشهر لتهدئة الأمور والمشاعر، ثم يجرى بعدها التفاوض بين الطرفين على أساس انسحاب إسرائيل من سيناء مقابل السلام، ووافق عبد الناصر على مشروع روجرز، وكان ذلك بعد أن سأل وزير حربيته الفريق أول محمد فوزى وقتها: كم من الوقت تحتاج لكى تنقل صواريخك إلى خط قناة السويس لكي تبدأ حرب عبور القناة والوصول إلى ممرات سيناء والتحصن بها وهي ممرات ميتلا والجدى (وهو نفس ما حدث فى حرب العبور بعد ذلك) فأجاب محمد فوزى أنه يحتاج إلى شهرين، فقال عبد الناصر: سأعطيك ثلاثة! (وهي نفس فترة الامتناع عن القتال الى اشترطها مشروع روجرز).

ورحل جمال عبد الناصر فى ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ بعد أن توقف القتال فى الشهر السابق آب (أغسطس) بموجب اتفاق وقف إطلاق النار وكانت الخطة ٢٠٠ لعبور القناة إلى الممرات تسير فى مسارها المحدد لها كما وضعها محمد فوزى واعتمدها جمال عبد الناصر".

منطقة القنطرة غرب ١٩٧٠

الفرقة تعدادها عدة ألاف ما بين عسكرى و ضابط.

رقم كبير؟

نعم هو كذلك وليكون تحت السيطرة الكاملة و الانضباط المتناهى لهى مسألة تحتاج لرجل قيادى ذو مواصفات خاصة أهم ما فيها الحزم، القوة، و حسن الإدارة.

كان إذا ما ذكر اسمه، مجرد الاسم، تسرى بين الجنود والضباط روحًا عسكرية عالية (بل هى أكثر من المعتاد جديه و التزام) كان لوقع اسمه رهبة و احترام.

هو عسكرى من الطراز الأول شديد البأس و الجلد.

لأكثر من خمسة و عشرين عام عايش سيناء حتى أصبحت تفاصيل جبالها أقرب إليه من تفاصيل وجه الأبناء، فى أوقات كثيرة وحتى يقوى نزعة الاستعداد وينمى ملكة مواجهة الطوارئ أيًا كانت لدى جنوده، كان يأمر بإطلاق عدة طلقات "هاوزر"، تسمعها و تنتبه على أثرها الجبهة كلها من أقصاها إلي

أدناها،فى عز الليل وفى الساعات القليلة التى يخلد فيها في الأغلب الجميع للراحة، وليس للنوم.

"نحن فى حالة حرب لابد أن نبقى يقظين مهما كان، سننعم بالراحة فيما بعد، بعد أن ننتصر"

لسان حال القائد.

فهذا الجيل لم ينعم برفاهية النوم و الراحة ككل البشر واستمر فى رباط على الجبهة فى مواجهة العدو، ولسنين طوال، مؤجلاً كل الأحلام الشخصية .

كل من تم تجنيده فى ٦٧ و ما بعدها، و لم يستشهد، بقي مجندًا على الأقل حتى٧٤.

ترك الفلاحون غيطانهم و العمال ورشهم ومصانعهم وتركوا جميعًا خلفهم أسرًا كانت معلقة برقابهم: زوجات وأبناء، أباء وأمهات، إخوة و أخوات.

أصبح لمصر فى كل بيت شاب و أكثر على الجبهة و بالتالى أصبح لكل عائلة فيما بعد جريح أو شهيد و أكثر.

"و إن كان فى أرضك مات شهيد فيه ألف غيره بيتولد ومدد مدد" محمد نوح

دفعت مصر الغلابة و المستورين، الفلاحين، الصنايعية والأفندية ضريبة دم باهظة، على المكشوف، بدون استرداد.

شباب الجامعة المتخرجون حديثًا تنازلوا عن حكايات الحب أو تركوا عرائس صغيرات لم يمض الكثير على ليلة زفافهن، أو أول طفل ولد منذ أيام أو شهور قلائل و لم يروا بعد أول ضحكاته، أول خطواته.

لم يكن الاستهلاك الأمريكى النمط أو الثراء الخليجى السريع و النفوذ و القوة هى حدود أحلامهم، بالعكس كانت أحلامهم بسيطة: عيشة مستورة، بيت ككل البيوت بثلاجته الإيديال و بوتاجازه المصانع، سجادة من دمنهور، أثاثه الدمياطى عادى جدًا يتشابه فى كل البيوت.

يلبسون جميعًا قطننا المصرى طويل التيلة المغزول بأيدى المحلاوية الحريرية، قمصانًا أنيقة و فساتين مرحة بدون بهرجة.

أحلام سهلة التحقق و مع ذلك لم يقربوها فى الواقع أحيانًا، ليس لبطالة و لكن لاستشهاد.

ماذا كان يدفعهم لذلك؟

إنه رصيد الحضارة و الانتماء بمعناهما العميق، الحضارة التى بنت و أنبتت، رسمت و نحتت، انتمت فغنت:

"وقف يا وابور و اربط عندك نزلنى فى البلد دى

بلا أميركا بلا أوروبا ما فيشى أحسن من بلدى"

"سيد درويش"

و عددت معبرة عن ارتباطها بالأرض حتى بعد الموت:

"وده قبر مين اللى البقر داسه، قبر الغريب اللى ترك ناسه

وده قبر مين اللي البقر هده، قبر الغريب اللى ترك أرضه"

تلك الحضارة، و التي يقول عنها الأستاذ الكبير "توفيق الحكيم": "تقبع الحضارة تحت جلد الفلاح المصرى"

القائد

"أنا ورجالى مستعدون فى أية لحظة للعبور، إذا ما ضغطت على زر سيعرف رجالى أماكنهم على الضفة الاخرى للقناة، نحن نعرف مكان كل حبة رمل فوق هذه الأرض"

إجابة العميد غالى لسؤال الرئيس السادات قبل الحرب عن موقف غالى من القنطرة.

يعرف كل حبة رمل و يعرف كل جندى و ضابط خدم معه، لا ينسى اسم من عمل معه من أصغرهم إلى أكبرهم و لو مر على ذلك عدة سنين، هم أهله و كل ما له من أصدقاء و معارف، يقضى معهم أحلى الأيام شبابًا وفتوة وأحلكها هزيمة و انكسارًا و أهلكها على العدو استنزافًا وانتصارًا.

الفريق الشهيد " عبد المنعم رياض" له مقولة:

"لا أصدق أن القادة يولدون، إن الذى يولد قائدًا هو فلتة من الفلتات التي لا يقاس عليها كخالد بن الوليد مثلاً، ولكن العسكريين يصنعون، يصنعهم العلم والتجربة والفرصة والثقة.

إن ما نحتاج إليه هو بناء القادة وصنعهم، والقائد الذى يقود هو الذى يملك القدرة على إصدار القرار فى الوقت المناسب وليس مجرد القائد الذى يملك سلطة إصدار القرار".

..........و هو أيضًا من يجمع الجنود حوله حبًا واحترامًا.

كانت العلاقة بين "غالى" و بين الجنود إنسانية بالدرجة الأولى، كأب للجنود، طبقا لشهادات زملاء السلاح (المصدر الاهرام ويكلي يناير (١٣ – ١٩) ٢٠٠٠)، فلقد كان أهم ما يميز "فؤاد غالى" ، هو حبه الأبوى لقواته و قربه الإنسانى منهم.

فى حوار مع اللواء مهندس مصطفى الدريني بجمعية المهندسين العسكريين بمدينة نصر:

"فؤاد غالى قائد لا يتكرر، ليس بسبب قدراته العسكرية والتخطيطية فقط ، لا أبعد من ذلك، فشخصه كما رسمه كان له سمت القائد و حضور مهيب".

طويل عريض له هيبة و وجه ينضح بملامح النيل و الأرض من أقصى الصعيد لحد البحر عند الإسكندرية، شعره الأسود الناعم الغزير يذكرك بسواد خصوبة الغيطان، بليل الفلاحين، بينما تبقى عيناه شديدتا اللمعان و التوهج نافذة مفتوحة على روح شجاعة و مغرمة بوطنها.

"ما هى صفته الأكثر تميزًا فى نظرك؟" سألت

"شخصيته القوية نتيجة علمه العميق و ولعه بالاطلاع، فهـــو كما تعلمين، قائد أركان حرب لفرقة مشاة و لكنه كان متمكن من علم الأفرع الأخرى، مـــن مـــدرعات، مدفعيـــة، حـــرب كيماوية، إلى آخره، بحيث كانت له قدرة التصرف بناء علـــى علم حقيقى و معرفة دقيقة و ليس عن هوى أو انطباعات عامة و سطحية، إذا ما لزم الأمر فى غياب أى من القادة المرؤوســين للتخصصات المختلفة".

"كانت له عقلية خلاقة، يكسر النمطى و التقليدى، فهو مثلاً صاحب فكرة استبدال بناء كوبري ثقيل ثابت لعبور المدرعات، بتفكيكه و استخدام قطعه كمعديات بحيـــث لا يـــتم ضـــرب الكبارى الثقيلة كأهداف ثابتة تقطع فرصـــة انتقـــال المعـــدات وآلات الحرب الثقيلة إلى الضفة الشرقية حيث ساحة القتال.

كما كان صاحب فكرة إنشاء و تدريب مجموعات من أربع مقاتلين يحمل كل فرد منهم مدفع أربى جى و ينتقلون فى عربات جيب لقنص الدبابات، و كان يخرج معهم لتدريبهم بنفسه"

"ماذا كان يكره؟"

"كان يكره الجهل،عدم الأمانة فى العمـــل، الخفـــة و عـــدم الجدية، باختصار كـــان لا يقبـــل الفهلـــوة و لا التـــهريج، فى اجتماعاته العديدة ، لمراجعة خطـــة أو تـــدريب أو إشـــراف ومتابعة، كان لا يرحم مقصر فى عمله، شديد التعنيف لكل مـــا

ومن هو سيئ بالفعل، عظيم الاحترام للتخصص، و يقدر القائد المرؤوس العارف"

مجندون بدرجة عاشق

فى معرض استقصائى للوجه الجميل لزمن الحـــرب التقيـــت بالعميد متقاعد "سيد فراج"، المتخرج بعد الحرب بثلاث سنوات من الفنية العسكرية و الذى يحمل حتى اليوم انبهاره بالارتبـــاط الشديد الذى لمسه بنفسه بين المحاربين الذين خاضـــوا الحـــرب وبين آلياهم مدرعة كانت أو دبابة، قـــال لى أنهـــم كـــانوا لا يسمحون لأحد بصيانة أية منها، هم فقط من لهم هذا الشرف.

أن تحب أمك و أباك وتبرهما، تعـــشق زوجتـــك، تخـــاف وتحنو على أولادك صغارًا و تفخر بهم شبابًا، تشتاق لصديقك، مشاعر إنسانية بحتة تربطنا بمن تجرى فى عروقهم نفس دماؤنـــا ويشاركوننا الحياة، يؤنسوننا فى الوحدة و الشدائد و نمتد فـــيهم وبهم ماضيًا و حاضرًا و مستقبلاً و بعد الممات.

لكن ماذا يدفعنا لعشق الأشياء حبًا و برها و الخوف عليهـــا والفخر بها؟ إلا أن تكون هذه الأشياء قد: شـــاركتنا الحيـــاة، واطلعت على دواخلنا عندما جرت عليها دماؤنـــا وأصـــبحت أنيسنا ورفيقنا حتى لحظة الممات، آخر ما تراه العين وتلمسه اليد تصافح فيه الحياة مودعة.

لخص لى هذه المعانى العميد مهندس متقاعد "ســـيد فـــراج" وهو يصف لى كيف كان الجنود و الـــضباط فى هـــذه الفتـــرة

مرتبطين بسلاحهم، مدافعهم و مدرعاتهم ، ارتباط إنساني غير قابل للمزايدة و غير موضع لنفاق أو افتعال.

"كانوا حريصين على صيانة معداتهم و أسلحتهم بأيديهم، إذا رأيت أحدهم و هو ينظف مدفعه أو آليته المدرعة و كيف يلمع كل قطعة فيها كأنها قطعة من بيته من جسده و يغير عليها، يرفض أن تمتد إليها يد أحد غيره للاهتمام بها"

لن أقول كزوج غيور بل كعاشق مدله فى هوى المحبوبة.

" رأيت بعيني، قال لى، جنودًا يفكك الواحد منهم مدفعه الرشاش ثم يعيد تركيبه و هو مغمض العينين بالمعنى الحرفى وليس المجازي للكلمة"

كانوا يؤدون عملهم بإجادة المحترفين و متعة الهواة و إيمان أصحاب القضية.

ست سنوات فى خندق

من ذكريات الفريق "غالى":

"فى أعقاب حرب ٦٧ قضيت الست سنوات التالية فى الخنادق على طول قناة السويس، لدرجة أننى تأكدت من عدم قدرتى علي حضور حفل زفاف ابنة الرئيس السادات لأننى لم أكن أمتلك بدلة مدنية واحدة، و كان هذا هو الحال أيضا بالنسبة لزميلى اللواء "أحمد بدوي"،و بناء على أمر من المشير

"أحمد إسماعيل" تم تجهيز بدلتين مدنيتين لكلينا، فى خلال ثمان ساعات. و استطعنا هكذا حضور الحفل"المصدر السابق

هؤلاء هم جنود و ضباط و قادة *الفترة الممتدة من معركة "رأس العش" التي منعت فيها **قوة صغيرة من المشاة** سيطرة القوات الإسرائيلية على مدينة "بورفؤاد"، ثم نسف "إيلات" المدمرة الأسطورة بصاروخ من **زورق بحري صغير** يقوده شباب ٦٧ بعد أسابيع قلائل من الهزيمة مرورًا بالاستنزاف ووصولاً إلى عبور ٧٣و حتى إحالتهم للتقاعد فيما بعد.

[١٣]***و رغم الالتزام الشديد بإيقاف النيران إلا أن تلك الفترة شهدت بعض الملاحم البطولية التى أدارتها قواتنا المسلحة بما كان متيسرًا لديها من أفراد وأسلحة و معدات قليلة، فكانت أول تلك الملاحم معركة رأس العش و هى باكورة المواجهة الحقيقية بعد يونيو ٦٧، التى تكشف عن معدن المقاتل المصرى حيث تقدمت قوة مدرعة إسرائيلية فى الساعات الأولى من صباح أول يوليو ٦٧تقدمت من الجنوب لاحتلال بور فؤاد فى الشمال، فتصدت لها فصيلة من القوات الخاصة، لا يزيد أفرادها عن ثلاثين مقاتلاً مزودين بالأسلحة الخفيفة، و لقنت العدو درسًا كانت خلاصته أن النصر**

---

[١٣] *(بتصرف من صفحة ١٩ إلى ٢٣: الفصل الثانى، حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة، أكتوبر ١٩٧٣ ، بقلم اللواء حسن البدرى، اللواء طه المجدوب، عميد أ. ؛ ضياء الدين زهدى) الناشر الشركة المتحدة للنشر و التوزيع*

الرخيص الذى اغتصبه قبل عشرين يومًا هو استثناء لن يتكرر أبدًا.. مما أجبر العدو عن النكوص عن محاولة استثمار مكاسبه فى يونيو ٦٧ و لم تجرؤ بعدها ،وعلى امتداد ست سنوات، أن يكرر محاولته لاحتلال بور فؤاد الصامدة

و فى الجو قامت القوات الجوية يوم ١٤ يوليو ٦٧ بقصف قوات العدو المدرعة و الميكانيكية والمدفعية عندما تصدت لها طائرات العدو خاضت معها معركة جوية وكانت تلك مفاجأة تامة للعدو بعد ضربته الجوية المركزة التى لم يمض عليها أكثر من شهر إلا قليلاً

و فى البحر كان إغراق المدمرة إيلات نصف قوة الأسطول الإسرائيلى من المدمرات، يوم ٢١ أكتوبر ٦٧ ملحمة أخرى فقد قام أحد لنشات الصواريخ المصرية بتحطيم المدمرة إثر اجتيازها مياهنا الإقليمية شمال شرق بور سعيد، كانت تلك أول معاركنا البحرية بالصواريخ كما كانت أول معارك الصواريخ البحرية فى التاريخ و قد ترتب عليها تغيير الكثير من النظريات البحرية العالمية".

"يا بلدنا لا تنامي　　دواري وسط الاسامي
واجمعي صف الأماني　　و اطصفي وراه يا بلدنا"

"دواري علي مخلصينك   اللي من زمان شارينك
و باعوا الراحة"

"هم القلع و هم الصاري   بصي حواليكي و اختاري
سكتنا لبكرة ....   سكتنا لبكرة يا بلدنا"

"كوني سد و كوني رد   و مدي اليد لفوق يا بلد
قولي أيوة و قولي لأ   ده النصر قريب مهما بعد
وعنينا شايفاه يا بلدنا   و عنينا شايفاه يا بلدنا"

أغنية لعبد الحليم حافظ

ملحوظة:

يعتبر "أريل شارون" رئيس الوزراء الإسرائيلي *حرب الاستنزاف التي شنتها القوات المصرية في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ من أقسى الحروب التي خاضتها إسرائيل.

[١٤]* " بدأت مرحلة الدفاع النشط في سبتمبر ٦٨ واستمرت حتى فبراير ٦٩ و اتسم الصراع فيها بالتراشق بالنيران لفترات طويلة و بكثافة عالية مما قيد حرية العدو في التحرك والاستطلاع والمناورة كما كبده خسائر متزايدة في الأفراد و المعدات.

---

١٤ (بتصرف من صفحة ١٩ إلى ٢٣: الفصل الثاني، حرب رمضان ، الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة، أكتوبر ١٩٧٣ ، بقلم اللواء حسن البدري، اللواء طه المجدوب، عميد أ.ح ضياء الدين زهدي) الناشر الشركة المتحدة للنشر و التوزيع

حاول العدو التدخل بالطيران ضد مدفعيتنا و لكنه فـــشل لبراعة إخفاء مواقعها و مرونتها فى الحركة و المناورة و من هنا بدأ يخطط لإقامة خط تحصينات قوية على طـــول المواجهـــة وكان ذلك إيذانا بمولد "خط بارليف" الأول.

اضطررنا إلى تخفيف نيران مدفعيتنا حيث كان العدو يـــرد على قصفنا لمواقعه بقصف مدن وقرى منطقة القناة.

بدأت مرحلة الاســـتتراف فى الثــامن مـــن مـــارس ٦٩ وقصفت مدفعيتنا خط بارليف بتركيز شديد واستمر القصف فى اليوم الأول لمدة خمس ساعات متواصلة فى التاســـع مـــن مارس توجه الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركـــان حـــرب القوات المسلحة و شهيدها الغالى ليرقب عن كثب نتائج هذا القصف و سقط و هو فى أقصى المواقع الأمامية.

و نتيجة القصف شبه المتواصل تحطم ٨٠% مـــن خـــط بارليف الأول. ثم بدأت عمليات الإغارة على مواقع العدو فى الضفة الشرقية و بالعمق القريب ليل نهـــار، و تحولـــت مـــن إغارات بمجموعات صغيرة إلى أخرى كبيرة الحجم و الهـــدف وصلت إلى سرية ثم أكبر، و برز نشاط القـــوات الخاصـــة والكمائن و تصاعدت العمليات إلى مهاجمة مواقـــع العـــدو الحصينة فى وضح النهار و ارتفعت فى كل مرة الروح المعنوية مع كل عبور و تميزت تلك الفترة بتزايد خسائره و استتزافه المتواصل في المعدات و الأفراد.

فى ١٦ نوفمبر ٦٩ شنت الضفادع البشرية هجومًا على ميناء ايلات أغرقت ثلاث قطع بحرية داخل الميناء و كررت العملية فى نفس الميناء يوم ٦ فبراير ٧٠ أغرقت قطعتين بحريتين مكدستين بالمعدات و الذخائر أدى انفجارهما إلى تحطم الكثير من تجهيزات الميناء بما فيه مقدمة البلدة و فى ٩ ديسمبر ٦٩ تحطمت أسطورة الفانتوم إذ أسقطتها طائرة ميج ٢١ وفى المقابل و بشكل فيه الكثير من الضعة بدأ العدو يقصف أهدافًا مدنية ليخفف من ضغط قواتنا عليه و يرخي تكتلها أمامه ويزعزع ثقة الشعب فى قواته المسلحة و يهز ثباته فقصف مدرسة بحر البقر الابتدائية للأطفال ومصنع أبى زعبل المدنى.

استبسل رجال الدفاع الجوى و المهندسين و العمال المدنيين فى بناء شبكة الصواريخ المضادة للطائرات رغم محاولات التدمير المستمرة من العدو، و استشهد الكثير من العسكريين و المدنيين ولكنهم واصلوا تنفيذ المهمة برغم كل الغارات و القصف المجنون الذى قام به العدو و استنزف الدفاع الجوى طائرات العدو حتى بلغ عدد إصابة و تدمير طائراته ٢١ خلال شهر واحد هو يوليو ١٩٧٠ مما أجبر العدو على القبول بمبادرة "روجرز" وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت.

و استمرت حرب الاستنزاف حتى قبلت مصر هى أيضًا المبادرة ذاتها فصمتت النيران مرة أخرى يوم الثامن من أغسطس ١٩٧٠."

حديث الأستاذ/ عبده مباشر

نفراتى.......... تعرفي يعنى إيه نفراتى؟

إجابة مفاجأة و غير مفهومة لسؤالى البسيط:" من هو عزيز غالى؟"

عندما التقيت بالأستاذ عبده مباشر فى مكتبه بجريدة الأهرام، كان مشغولاً لأقصى درجة فاليوم هو الخميس و هو المسئول عن عدد الجمعة بكل ما يحمله من عبء العدد الأسبوعى المميز.. ومع هذا استطاع أن يقتطع ربع ساعة شربنا فيها يانسون دافئ، و لخص لى جوهر الشخصية التى أكتب عنها.

ثم فسر "يعنى رجل معسكر، رجل ميدان لم يعرف معظم حياته سوى الجبهة و لم يعرف رفاهية النوم على الأسرة الوثيرة ذات الفرش الناعم"

قلت له أن لدى موعدًا غدًا مع إحدى بناته، نظر بعمق إلى وأردف: "ابحثي عن أبناء دفعته، وحاولى الوصول لمن عملوا معه على الجبهة، فهؤلاء هم من يعرفونه حقًا، بناته يا ابنتي لم يعرفنه قدر هؤلاء لأنهن لم يعشن معه مثلهم"

حديث السيدة / نجوى غالى

"لم يكن عنده سوى أفرول الجيش، عندما استدعى للقاء الرئيس السادات ليقلده الوسام فى فبراير ٧٤ لم يكن عنده حتى البدلة العسكرية الخاصة بالأجازات، تلك التى يظهر بها القادة والضباط في المناسبات و الاحتفالات و يعودون بها من الجبهة فى الأجازة، فلم يكن ممن اعتادوا النزول فى أجازات من أصله، لم يعرف سوى أفرول الجبهة لسنوات طويلة.

"لم أعرف والدى، كإنسان وأب، إلا بعد أن تقاعد. فطوال مدة خدمته على الجبهة، و التى هى كل طفولتى وشبابى، حتى تزوجت، كان مثل الزائر الموسمى، كقريب لنا من بعيد تجمعنا به بعض الأيام كل بضعة اشهر.

كانت أجازته أربعة أيام كل شهر، و كان قليلاً ما يقوم بها، و كنا فى البيت نستعد لهذه الأجازة المتباعدة كحدث استثنائى. الطعام معد بإتقان لضيف مهم، البيت فى قمة الترتيب، أنا وأخواتي فى ملابس أنيقة. كنت لا أستطيع أن أحس بما تشعر به الفتيات الأخريات من اعتياد وجود الوالد، الذى كان حق طبيعي حرمنا منه لأن والدى كان طول الوقت على الجبهة.

و بما إن ذلك كان نادر الحدوث فلقد ظللت أتعامل معه كضيف، ثم كان زواجى و انتقالى من بيت العائلة بعد ذلك.

غير أن الفرصة أتيحت لى لمعرفة هذا الرجل الإنسان عن قرب فأفهم الكثير مما كان يحيرني من شأنه قبلاً. قد لا أبالغ إذا

قلت أن تقاعد أبي و مرض والدتى، لهما الفضل فى اكتشافى لهذا الكنز من الأحاسيس و الإنسانية، وهذا الكم من النبل و الصدق فى شخصيته. فطوال سبع سنوات عانت فيهم والدتى من مرض أقعدها، لم يسمح لأى شخص مهما كان بخدمتها، و قام هــو بذلك و بقدر كبير من التفانى، وكنت إذا طلبت منه أن يترك لى رعايتها قليلاً، كان يقول: "كيف ذلك وهى الـتي احتملـتني واحتملت غيابي عنها و عنكم و تحملت عـنى كـل تبعـات رعايتكم، كيف لى ألا أرعاها بنفسى الآن؟"

الشئ الغريب فى والدى أنه رغم جديته و عسكريته الملتزمـة وحياته القاسية التى قضاها على الجبهة وسط النيران و المـدافع هذه الحياة الخشنة، الصعبة لم تنـتقص مـن رقتـه و عذوبتـه الإنسانية، فقد كان حريص على تدوين مواعيد أعياد ميلاد كل من يعرفهم أو يتعرف بهم، و رغم كونه قليل الكلام كان يفاجأ كل من حوله باهتمامه الحقيقى وحرصـه علـى مجاملتـهم فى أعيادهم و بشكل هادئ ودود. أذكر أيضًا كيف كانت لديـه مقدرة غير عادية على الإلمام بموضوع ما و النفاذ إلى فهمه بعمق حتى لو كان يقرأ فيه لأول مرة، فأخى الأصغر كـان طالبًـا فى كلية تجارة عندما كان والدى متقاعدًا بعد الإحالة على المعاش، و كان لا يطيق أن يقضى وقته بلا عمل فكان يأخذ كتب أخى يقرأها جيدًا ويقوم بإعادة كتابتها بـشكل ملخـص و أكثـر وضوحا، برغم عدم دراسته لكل هذه المواد من قبل، لكنه كان شغوفًا بالمعرفة و بمساعدة الأخرين و بالعمل المستمر.

كان أمله الكبير أن يرى الجيش المـــصرى أقـــوى الجيـــوش وأكثرها دقة و تنظيما و إمكانيات. عاش حياته للبلد و الجـــيش ومات وهو يختزن الكثير من الأمنيات التى تمنى تحقيقها لعـــشقه الأول: الجيش المصرى."

[١٥] " الفريق فؤاد عزيز غالى ..أحد أبطـــال أكتـــوبر٧٣ وقائد الجيش الثانى الميدانى ومساعد وزير الدفاع ورئيس هيئه التنظيم والإدارة.. تخرج فى الكلية الحربية عام ٤٨، وشـــارك عقب تخرجه فى حرب ٤٨ بفلسطين، وقاتل فى معارك جباليـــا وغزة والتبة وهى المناطق التى شهدت أشد المعارك وأكثرهـــا ضراوة.

خدم فى عدة مناطق بالصحراء الغربية والمنطقة الشرقية ثم سيناء فى عام١٩٥٦ وشارك فى حرب اليمن، وكـــان أحـــد المشاركين فى حرب الاستنزاف ثم أحد المخططـــين لإعـــداد وتجهيز الجيش لحرب التحرير فى أكتوبر٧٣، حيث تولى قيادة الفرقة ١٨ التى كانت مهمتها فى بداية الحرب اقتحـــام قنـــاة السويس عنوة فى منطقة القنطرة وتدمير القوات الإســـرائيلية وأسلحتها فى النقاط الحصينة فى المواجهة وعلى الأجناب(سبع نقاط حصينة) وتحرير مدينه القنطرة شرق والاســـتيلاء علـــى رأس كوبرى بعمق٩ كم والتمسك بـــه، ورصـــد وتـــدمير هجمات وضربات العدو المضادة، والاستعداد لتطوير الهجوم

[١٥] ٢٠٠٢/٧/١٤ الأهرام العسكريون المصريون العظام من مقال كتب: ممدوح شعبان

فى العمق شرقًا باتجاه بالوظة رمانة. ولقد حقق الفريق فـؤاد عزيز مع فرقته كل المهام التى كلف بها، وقام برفع علم مصر علي مدينة القنطرة بعد تحريرها ليشارك ضباطه وجنوده فرحه النصر فى رمضان وليثبت أن المصريين (مـسلمين وأقباطـا) نسيج واحد".

[١٦] "وللأسف قررت القوى الكبرى في العالم الغـربى أن تضرب حلمنا فى بناء مصر المتطورة وكان ما كان في يونيـو عام ١٩٦٧وقد لمست الحزن والإحباط على وجـه القائـد الفريق إبراهيم سليم فكان أن اعتذرت عن عرضه الـسخى، واعتقدت وقتها أن مسار المنطقة محكوم عليه أن يغير مـساره وهو ما كان، إلى أن جاءت ومضه عبـور أكتـوبر١٩٧٣. ومن هنا فإن التحية والتقدير واجب لثلاثـة رجـال كلـهم وصلوا إلي رتبة فريق وكلهم رحلوا فى الأشهر القليلة الماضية لعام٢٠٠٠، فالفريق محمد فوزى هو الذي أعاد بناء القوات المسلحة من شباب الجامعات الذى استوعب الأسلحة الحديثة، والفريق إبراهيم سليم قد أنشأ الهندسة العسكرية فيىمجـال الدبابات والمدافع والصواريخ والحرب الإلكترونية بالبحوث والعلم والتدريب فكانت خميرة ضباط الفنية العسكرية أحـد أسباب النصر، وأخيرًا استطاع الفريق فؤاد عزيز غالى أن يجني

---

[١٦] *غدًا أكثر إشراقًا الأهرام ٢٣/٥/٢٠٠٠ رحيل الفريق سليم رائد الهندسة العسكرية فى مصر من مقال بقلم: د. ميلاد حنا*

ثمار كل ذلك، وكان من نصيبه وتوفيقه أن يكون أول قائد يعبر القناة يوم٦ أكتوبر عام١٩٧٣ ويرفع علم مصر خفاقًا على الضفة الشرقية للقناة، فكان نقطة تحول فى تاريخ مصر الحديث."

حكايات من الحرب

اللواء طبيب متقاعد رفعت فرحات قائد الفرقة الطبية بالجيش الثانى

قال لى: " لقد كان الفريق غالى رحمه الله عسكريًا عظيمًا، وقائدًا وطنيًا قليلاً ما يتكرر و لكن دعيني أقص عليك حادثتين لتكتشفى بنفسك كيف و لماذا كان هناك رجال مثله فى تلك الفترة".

بعد المغرب، يومى ٧ و ٨ أكتوبر ٧٣ ، نادينا على الناس فى جامع الحسين، كنا نطلب متبرعين بالدم، الحرب فى بدايتها والناس تتوافد علينا بالمئات، إلى أن جاءت سيدة هزيلة تحمل طفلة فى عامها الأول أو تكاد و يمسك بذيل جلبابها طفل لا يتعدى الثالثة بينما تبدو عليها علامات الحمل فى الشهور الأخيرة، ونادتني:

"أنا يا بيه عايزه أتبرع"

"مش ممكن يا ست إنتى حامل و واضح كمان إنك ضعيفة"

"لا يا بيه أرجوك لازم أتبرع"

وبعد مناقشة طويلة مني و إصرار شديد منها، هدج صوتها وهي تستحلفني بأغلى ما عندى:

"و النبي يا بيه أتبرع"

نظرت إلى طفلها و قالت:

" الواد ده أبوه فى الحرب دلوقت، يمكن شوية الدم دول يكون محتاجهم"

و بنبرة واثقة يختلط فيها الكبرياء و الإحساس بالمسؤولية بحب الزوج و الخوف على مصير الأطفال:

" أنا مش ماشيه من هنا إلا ما تاخدوا مني الدم"

هزتني، لدرجة أنني لم أستطع أن أحبس دموع اغرورقت بها عيني، كانت حجتها قوية و لم تتركنا إلا بعد أن أخذنا منها ٢٠ سم من الدم، طبعا هذه كمية لا تذكر و لكن كان لابد أن أستجيب لها و من يومها و أنا لا يمكنني نسيان هذه السيدة ووجهها الشاحب و إصرارها العظيم.

إن لم تكن هذه هى الوطنية فما هى إذاً؟

حكاية أخرى:

أثناء الحرب فى السويس، كان هجوم الإسرائيليين وشـيكًا على موقعنا، دخل على النقيب "صفوت غطاس" و قـال:"لازم سيادتك تسيب الموقع حالاً يا فندم"

"استحالة"

"يا فندم الهجوم وشيك علينا وسيادتك القائد لا يمكن تقع فى أيديهم"

و عندما عدنا لم يكن للموقع أثر، دكته نيران العدو و ذاب جسد النقيب صفوت غطاس فى المكان بعد أن ظل يدافع عنـه حتى أخر لحظة و أخر نفس.

في نفس الوقت كان العسكرى المكلـف بقيـادة عربـة الإسعاف والتى بها كل مخزون أكياس الدم، اختفى و لم نجـده لمدة يومين بعد الغارة و اعتبرناه مفقود و على الأغلب شهيد.

إلا أننا فوجئنا به بعد يومين، وهو فى حالة مـن الإعيـاء الشديد يدخل علينا، التففنا حوله و قلت له: "الحمد لله إنـك بخير فداك العربية"

نظر إلى بعينين يمتلئان فخرًا و شعورًا باكتمال واجبه:

" عيب يا سيادة القائد، عربية الإسعاف سـليمة و كمـان أكياس الدم"

كان هذا العسكرى البسيط المصرى العادى جدًا، و الـذى تجده فى بلادنا فى الأرياف، الصعيد، المناطق الشعبية. الذى تعانى

من سلبيته اليوم، تبلده، عدم تحمله المسؤلية و إهماله. هذا المصرى بعد القصف الشديد على الموقع أسرع بعربة الإسعاف لينقذها من التدمير، كان يعلم جيدًا أن هذه العربة هى سبيل النجاة لكل المصابين بعد الغارة، وهى مسؤليته الأولى، و إذا به بعد انفجار قريب منه تختفى العربة بالكامل تحت وابل من التراب ، تفتق ذهنه عن شئ عبقرى استغل هذا المخبأ الذى توافر له بعد الإنفجار و أبقي موتور العربة دائرًا. لمدة يومين مغطى بشكل شبه كامل بركام الإنفجار، لا يتوفر له سوي بصيص من ضوء و بالكاد ما يكفيه من هواء يتنفسه ليبقى فى عداد الأحياء، بلا طعام أو شراب.

"أنا فضلت مشغل الموتور علشان التبريد و الدم ميخسرش. عيب يا فندم دي مسؤليتي، أموت ولا العربية أو الدم يخسروا"

هذا كان الضابط المصرى، و العسكري المصرى النموذج للمسؤلية، البطولة والوطنية، الفرز الحقيقى لمعدننا و نسيجنا الملتحم بهويتنا آنذاك.

برغم كل شئ.. لم أكن أصدق! [١٧]

تجاوزت عقارب الساعة الآن الواحدة والنصف ظهر اليوم السادس من أكتوبر١٩٧٣، يعتريني قلق شديد أكتمه، فأنا لا أصدق صحيح أنا جاهز وفى تمام الاستعداد وسرية الدفاع الجوى، قيادتى جاهزة للضرب وللتحرك، وصحيح أن تلقيت

[١٧] الأهرام ٢٠٠٣/١٠/١٠ يوميات مقاتل

تعليمات مهمة فى اجتماع لقائد الكتيبة مع قـادة السـرايا فى الليلتين المنصرمتين، تتعلق بتأمين التحرك والعبور وتوقيتهما،واحتلال مواقعنا فى الجانب الآخر من القناة، وتتعلق بوسائل الاتصال والتعيين والمياه والمؤخرة، وصحيح أن ملامح قائد الكتيبة ورئيس العمليات ونبرات صوتيهما كانت تـومض ببريق جدية ورهبة المسئولية فى ضوء خافت للمبة جاز تقبع معنا بملجأ صغير تحت أرض القنطرة غرب بمنطقة اسمها الحرش وصحيح أن قائد اللواء مر بنفسه يتفقد موقعنا صباح اليوم،ولكل ذلك دلالات لها معنى، ومع ذلك فأنا لا أصدق... أحمل فى جيبي وفى ذاكرتى توقيت تحرك السرية بمدافعها عيار٣٧.. المضادة للطائرات، وتوقيت العبور الذى تحدد (س+١٠) يعنى ساعة عبور السرية يكون بعد عشر ساعات من ساعة الصفر التى كنا لانزال نجهلها وقد كانت أهمية الالتزام بتلك التوقيتات ودقة حساب الزمن تفرض نفسها للتحكم فى انسياب العربات والمعدات العابرة للشاطئ الشرقى والمحمولة بالمعديات، وحتى يمكن تجنب الفوضى والتخبط، وحرصًا على الأمن ومتطلبات الإخفاء والتمويه، فقد كانت الدقة مطلوبة فى حساب الوقت لتجهيز السرية للتحرك، والوقت المفترض أن تقطع فيه الطريق للوصول إلى المعبر على حافة الشاطئ الغربى

للقناة والذى لا تتجاوز المسافة للوصول إليه خمسمائة متر.. مع كل ذلك، فأنا لا أصدق..!

كيف أصدق حلمًا؟!.. وليته حلم ليلة، إنه حلم سنوات، ست سنوات، انشغلت بذلك الحلم بين عشرات الألوف من الحالمين.. لا تزال عقارب الساعة تسعى لتقترب من الثانية ظهر السادس من أكتوبر١٩٧٣.

ولا يزال عقلى يسعى للتشبث بأهداب أمل يلوح، ومع الانتظار والترقب تعاودنى الذكريات فى شريط بكرته ست سنوات، من سنة ١٩٦٨، بدءًا بتجنيد إلزامى لكل الجامعيين بعد مهزلة ١٩٦٧، والفصيلة ١٣بكلية الضباط الاحتياطى بألماظة ثم فرقة الدفاع الجوى بمدرستها بالمعمورة، ثم التدريب عمليًا قبل التخرج بأحد أفواج الدفاع الجوى بالفرقة الثانية بالصالحية والفردان.

وبعد التخرج عشت الحلم مع اشتباكات حرب الاستنزاف كلها، منذ استقبلتنى المدافع فى أول ليلة من عند نفيشة بمدخل الإسماعيلية وأنا لا أزال ببدلة الفسحة فى طريقى إلى كتيبتى الجديدة بمنطقة أبو عطوة وقريبًا من نصب الجندى المجهول، مرورًا بكل تحركات الفرقة ١٨ قيادة العميد فؤاد عزيز غالى، منطقه أبو سلطان، إلى جنيفة، الراحة فى القصاصين، والتدريب فى الخطاطبة، إلى الاحتلال والخدمة بمنطقة جزيرة البلاح، وأخيرًا القنطرة غرب طبعًا. حلم ست سنوات.. كام مره قالوا سنعبر..

ولم نعبر.. فلماذا أصدق الآن؟! ده حتى دفعتى سـرحوها مـع دفعات أخرى من١/٧/١٩٧٣، واستدعونا بس من أسبوع بعد ماسابونا ٣ شهور بره الجيش، أنا لا أصدق، ده مجرد استـدعاء للتدريب والتذكير وتجديد المعلومات.. كيف يتركون قائد سرية ثلاثة أشهر فى الحياة المدنية، ثم يستدعونه ليخوض بعد أيام قليلة ذلك الحدث الجلل؟! مش معقول.. صحيح أنا دربت سـريتى بنفسى سنوات وفاهمين بعض كويس قوى، تدريبنا كانت عمليًا طوال سنوات حرب الاستنزاف مع ذلك لا أصدق.

الساعة دلوقتى اثنين إلا خمسة تقريبًا، أبلغنى رئيس العمليات بالشفرة إن الساعة الثانية هى ساعة الصفر، ومع ذلك لا أصدق من الممكن أن يكون ذلك مرحلة من مراحل التدريب ويحـسم ذلك أمر من كلمتين: كما كنت فتعود الأوضاع إلى ما كانـت عليه.. لما نشوف.. كلها دقيتين وبيان.. نـستنى ونـشوف.. وفجأة صرخ الجنود صرخة واحدة وطلعـت عيـونهم لاتجـاه واحد.. ونظرت ليملأ عينى بعرض السماء صف طائرات مصريه هادرة مقبلة من الغرب على ارتفاع منخفض تسابق الريح نحـو الشرق، فجن جنوننا،وارتفعت أرواحنا إليها، وبلغتنا هتافـات الجنود المدوية وهى تطير فوقنا وتتجاوزنا الله أكبر الله أكبر أمـا أنا فقد كدت أبكى متتبعا إياها وهى تغوص فى الشرق وتبتعـد مودعًا إياها ربنا معاكم..ترجعوا بالسلامة،وسرعان ما انتبـهت واستدرت لمهامى، مشمرا عن ساعدى، متجاهلاً كل أحـداث شريط ذكريات السنوات الستة، لأسجل مع جنـودى شـريطًا

جديدًا للفخر يبدأ الآن فى اليوم السادس من أكتـــوبر١٩٧٣ولم أكن أدرى وقتها إنى سوف أعيش على حلـــو ذكـــراه حـــتى أكتوبر٢٠٠٣... وناديت: استعد للضرب وكـــررت: اســـتعد للاشتباك وسمعت الشاويش فتحي يهمس لزميل لـــه فى خبـــث محبب: وأنت الصادق يافندى قول اســـتعد للعبـــور وأخفيـــت ابتسامتى، وكتمت ردًا واجبًا قلته لنفسى: حاقولهالك ياخويـــا ووقتها.. لكن دلوقتى استعد فقط للضرب والاشتباك لمواجهه أى رد فعل للعدو، وان شاء الله لما تكون الساعة (س+١٠) يعـــنى فى نص الليل نكون بنعبر فأنا الآن والآن فقط.. أصدق!

التـــاريخ ٦ أكتـــوبر١٩٧٣ الـــساعة الثانيـــة ظهـــرًا نقيب: عبد العزيز أسعد قائد السرية الثانية بالجيش الثانى

[18] "محمد محمد عبد السلام العباســـى الـــشهير بمحمـــد العباسى أول من رفع علم مصر على أول نقطة تم تحريرها يوم العبور العظيم وهى النقطة ١بمدينة القنطرة شـــرق. قتـــل٣٠ وأسر٢١ من الإسرائيليين. حصل على شهادة تقدير من قائد الجيش الثانى الميدانى اللواء فؤاد عزيز غالى جاء فيهـــا: لقـــد أديت مهامك القتالية بامتياز وقد كنت أول من رفـــع علـــم جمهورية مصر العربية على الضفة الشرقية لقناه الـــسويس فى حرب أكتوبر.[٦ أكتوبر١٩٧٣ ،١٠رمضان١٣٩٣] أسجل لك شكرى وتقديرى لبطولتك.

---

[18] الاهرام ٢٠٠٣/١٠/٧محمد العباسي اول من رفع العلم بقلم: عبدالمعطي احمد

يعمل حاليًا موظفًا بالوحدة الصحية فى مدينة القرين مركز فاقوس محافظة الشرقية.

جُند بالقوات المسلحة قبل النكسة بأربعة أيام أى في الأول من يونيو عام٦٧، وكانت وحدته فى القنطرة شرق بسلاح المشاة الكتيبة١٤٥ اللواء٩٠ بقيادة اللواء فؤاد عزيز غالى. وكان قائد الكتيبة مقدم ناجى عبده إبراهيم جندى. وتعتبر تلك الكتيبة هى التى حررت القنطرة شرق فى حرب أكتوبر.

البطل محمد العباسى يعود بنا إلى يوم الجمعة٥ أكتوبر٧٣ قائلاً بعد أن استمعنا إلى الخطبة بعد الصلاة، قام قائد الكتيبة بجمع قادة الفصائل والجماعات لإلقاء أوامر القتال عليهم وتحديد ساعة الصفر بدرجه سرى جدا. وكانت الأوامر أنه فى صباح يوم السبت٦ أكتوبر ستوزع وجبة إفطار ولن يكون فيه صيام. وكان التوقيت أن المدفعية الثقيلة ستقوم فى الثانية بعد الظهر بقصف العدو قصفة ثقيلة لمده خمس دقائق وكانت فرحتنا كبيرة لأننا ننتظر تلك اللحظة من مدة طويلة لعبور القناة. وفي لحظات سريعة، قمنا بتحضير القوارب وعبور القناة، ثم وصلنا إلي البر الشرقى. وقمت قبل فتح الثغرة بتسلق الأسلاك الشائكة وتفادى الألغام حتى صعدت قمة الدشمة الحصينة، وقمت بإطلاق الرصاص على بعض الجنود الإسرائيليين المتقهقرين للخلف، وأصدر قائد الكتيبة الأوامر لبعض الجنود للتسلل من المكان الذى تسللت منه، وتم

السيطرة على الدشمة الحصينة رقم (١) بالقنطرة شرق.، وقام قائد الكتيبة بإهدائي علم مصر لأقوم برفعه وتمزيق العلم الإسرائيلي وكان ذلك في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم٦ أكتوبر وكان المشهد رائعًا والفرحة تغمر القلوب فهناك من كان يقبل الأرض، ومنهم من يصلي، ومنهم من يرفع يديه للسماء.وحاولت طائرات العدو الفانتوم اقتحام تلك النقطة فردت الصواريخ المصرية سام٦ وسام٣ ودمرت اثنتين ثم سقط الطيار رقم (٣) أسيرا.

وفي صباح يوم٧ أكتوبر، قمنا بتطويق جزيرة البلاح من الأمام ليتم السيطرة عليها وأسر من فيها"

[١٩] "وطوال فتره العمليات كنت أحرص على الوصول إلى الحد الأمامي للقوات التي تقاتل في سيناء.

وفي أثناء تسجيلي لأرقام الدبابات الإسرائيلية المدمرة والمعطوبة التي هجرها رجالها، فوجئت باللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميداني أمامي، واسأله، ولماذا المخاطرة؟ فيجيب بأنه حرص على أن يتأكد بنفسه من أرقام الخسائر التي بعث بها القادة.

لقد خاطر بحياته، ووصل إلى الحد الأمامي حيث الحوار بالنيران والدم، لكي يعرف كل المقاتلين، إن قائد الجيش معهم

---

[١٩] الاهرام ٢٠٠٢/١٠/٦ كنت هناك الانتصار.. واكتمال الصورة بقلم/ عبده مباشر

على الحد الأمامى، ولكى يتحفظ القادة وهم يبعثون لقيـــاده الجيش بأرقام خسائر العدو.

ويقول سعد مأمون، أردت أن استوثق بنفسى. وان أتـــابع سير العمليات من هذه النقطة.

والذى لاشك فيه أن صورة الأداء الإعلامى خلال نكبـــة يونيو١٩٦٧، كانت مازالت ماثلة فى الأذهان، ولم يكن هناك من يتمنى تكرارها، والكل يذكر أن الهزيمة لحقـــت بـــالقوات المسلحة خلال الساعات الأولى من صباح الخامس من يونية، أما الإذاعة، وكتبة البيانات العسكرية فقد ظلوا يتحدثون عن الانتصارات لأكثر من ثلاثة أيام.

وإذا كانت جبهة القتال في أكتـــوبر ١٩٧٣ هـــى أرض البطولات والانتصارات والأمجاد، فان الجبهة الداخلية، كانت تعيش متغيرًا جذريًا للأفضل. فمنذ بـــدأ القتـــال، وتأكـــد المواطنون من أن الانتصار من نصيب مصر، بـــدأ الـــشارع المصري يشهد سلوكًا مختلفًا.

خلال هذه الأيام، كان من الصعب الحصول على المـــواد الاستهلاكية، لذا كانت الطوابير تصطف بالـــساعات أمـــام الجمعيات الاستهلاكية لتتخطف السلع الموجودة.. ومع بداية الانتصار، اختفت الطوابير بالرغم من أن الوضـــع بالنـــسبة للسلع التموينية لم يتغير.

والمدهش أن أقسام الشرطة لم تسجل حادثة سرقة طوال هذه الفترة، لقد أوقف اللصوص نشاطهم طواعية. ويذكر الذين عاصروا هذه الأيام، أن سلوك المصرى، اتسم بالتسامح وسعه الصدر والكلمة الطيبة، أما الابتسامة فكانت تكسو الوجوه بصفه عامة.

وهذا السلوك، لم يطلبه أحد من المصريين، إنما هى للفطرة السليمة للمصرى، التى تدفعه لأن يكون عند حسن الظن به فى مثل هذه الأوقات.

لقد اكتملت الصورة، ما بين الجبهتين، وكان الانتصار هو نقطة البداية."

[٢٠] "ما جرى خلال ساعات نهار يوم١٢ أكتوبر١٩٧٣ بقطاع الفرقة ١٨المشاة بعد نجاحها فى اقتحام القناة والاستيلاء على مواقع ونقاط خط بارليف الحصينة وتحرير مدينة القنطرة شرق، أول مدينه بسيناء يتم تحريرها، وبناء وتثبيت رأس كوبرى شرق القناة بعمق حوالى١٢ كيلو متر، وصد وتدمير هجمات العدو المضادة التى بدأت بعد وصول قوات الفرقة إلى شرق القناة أمر غير مألوف فى تاريخ المواجهات العسكرية سواء على مستوى العالم أو فى مصر.

---

[٢٠] *لأهرام ٤/١١/٢٠٠١ صفحه من أكتوبر بقلم : عبده مباشر*

ومسرح ما جرى، الطريق الأسفلتى الذى يصل القنطرة شرق بمدينة العريش والذي يمتد على ساحل البحر المتوسط، وذلك بالمنطقة الواقعة شمال مدينة القنطرة شرق.

وكانت الفرقة ١٨ قد تمكنت من تحرير مساحة من أراضى سيناء المحتلة بالقوة وفقا للخطة الموضـوعة، وأقامـت رأس كوبرى، وأعدت مدافعها ونشرت قواها لمواجهة أية هجمات مضادة معادية. ووفقـًا لخطـة الانتـشار احتلـت قـوات اللواء١٣٤ المشاة بقيادة العقيد حسام الهلالي الجانب الأيسر للفرقة.. وانتشرت مدافعه يمينًا ويسارًا الطريـق الـساحلى لتأمينه ومنع قوات العدو من استخدامه للتقدم باتجاه القنـاة. وتضمنت الخطة احتلال موقع متقدم أمام يسار رأس الكوبرى وعلى مسافة٤ كيلو متر لمد نطاق رأس كوبرى الفرقـة مـن جانب ودفع خطوط العدو الدفاعية إلى الخلف مـن جانـب آخر.واحتلت سرية بقيادة نقيب هذا الموقع الأمامى ونشرت مواقعها على جانبى الطريق الأسفلتى.

وطوال الفترة من٦ أكتوبر وحتى١٢ أكتـوبر، واصـلت الفرقة ١٨مشاة تحت قيادة العميد فؤاد عزيز غـالى أعمالهـا القتالية بنجاح، وانتقلت من نصر إلى نصر سواء في الهجوم أو الدفاع.

وقبل انتصاف نهار يوم١٢ أكتوبر، أرسل العـدو دوريـة استطلاع لاستكشاف المنطقة المحصورة بين خطـى الـدفاع

المصرى والإسرائيلى ولاختبار قوة وكثافة ومواقع نيران القوات الموجودة: بالحد الأمامى من ناحية مواقع اللواء١٣٤ مشاة والتى توجد على الجانب الأيسر للفرقة ١٨ مشاة ومدى تعاون نيران الفرقة ونيران اللواء المشاة، و سرعة رد الفعل المصرى.

وعندما قررت الدورية العودة، عادت فيما عدا سيارة جيب بقياده نقيب. وقد اتخذت هذه السيارة خط سير جعلها فى مواجهة رجال السرية التى تحتل الموقع المتقدم. ولم يكن واضحًا ما إذا كان النقيب الإسرائيلي قد ضل طريقه، أو تعمد الاصطدام بقوات هذه السرية.. المهم أن السرية اشتبكت معه، وأعطبت إطارات السيارة الجيب لمنعها من مواصلة السير، فما كان من النقيب الإسرائيلى إلا أن ترجل من السيارة واختفى تحتها.

وقرر النقيب قائد السرية المصرية الخروج من الموقع والتوجه لأسر النقيب الإسرائيلى قبل أن تصل قوات النجدة. وقد لفت تبادل إطلاق النيران بين الضابط الإسرائيلي والموقع المصرى المتقدم انتباه المواقع الإسرائيلية المتقدمة، وسرعان ما أدركت حقيقة الموقف، فأسرعت بالاشتباك لإسكات نيران الموقع المصرى حماية للضابط الإسرائيلى.

ومع ذلك نفذ قائد السرية المصرية قراره وخاطر بالخروج فى ظل الحوار بالنيران بين الموقع المصرى والمواقع الإسرائيلية.

وبمجرد خروجه من الموقع، وجه نيرانه باتجاه مكان اختفاء الضابط الإسرائيلى، وخلال تبادل إطلاق النار، تمكن الضابط الإسرائيلى من إصابة الضابط المصري، الذى سقط شـــهيدًا، وبقيت شجاعته حكاية تروى وتنير الطريق أمام المقاتلين."

تابع حكايات من الحرب (شهادات لبعض الجنود من موقع على شبكة الانترنت)

يبدأ عبد الله المصرى ذكرياته ويقول ... إننى أفخر بـأن أكون واحدًا من مئات الآلاف الذين ساهموا فى كتابة جزء من تاريخ مصر في ٦اكتوبر١٩٧٣فى خريـف عـام ١٩٧١ تم تجنيدى فى القوات المسلحة و بسبب دراستى تم إرســالى إلى مدارس القوات المسلحة المتخصصة فى الرادار و الـصواريخ لتلقى العلوم العسكرية فى أنظمة الدفاع الجـوى و لأصـبح متخصص فى تشغيل و إصلاح محطات الرادار الـتى توجـه الصواريخ.

فى صيف عام ١٩٧٢ أنهى الرئيس السادات عمل الخبراء الروس و تم إرسالنا على الفـور لحـل محلـهم فى كتائـب الصواريخ وكان مكانى فى كتيبة الصواريخ ١٤ على الجبهــة بالقرب من مدينة السويس.

عند نزولى ومعي مخلتى من العربة الـتى تحمـل الميـاه إلى الكتيبة و التى وجدتها مصادفة على الطريق خرج أحد الجنود من خندقه وهو يبتسم وقال بصوت عالى..

" أيوه هى دى الجبهة "...

وكانت إجابة لسؤال يدور فى ذهنى ولم أكن قد نطقت به بعد و لكنى لم أشاهد محطات الرادار و لا قواذف الصواريخ ولا العربات التى تحمل الصواريخ .

أين هى هذه الكتيبة ؟!! وعرفت أنها تنصب أحد الكمائن لطيران العدو على حافة القناة وهذا المكان هو مؤخرة الكتيبة أى مكان العودة، وركبت مرة أخرى عربة المياه بعد تزويدها بالطعام واتجهنا فى اتجاه القناة ، انتهى الكمين دون اشتباك مع طيران العدو الذى لم يحاول الاقتراب من القناة وقمنا بفك المحطات و تحميل الصواريخ وكان هذا عمل شاق لأن قواعد الصواريخ هذه صممت لتبقى فى مكان ثابت لضخامتها وثقل معداتها و لكن كانت قيادتنا أيضًا تدربنا على نقلها من مكان لآخر حتى لا يعلم العدو بمكان ثابت لها عن طريق وسائل استطلاعه فقد كنا فى حركة مستمرة.

كان أول لقاء مع رفقاء السلاح العريف "أبو الفتوح" (مأمور ضرائب) وحبه الشديد للنظافة و الترتيب وكان يعطينى علبة سجائره " البلمونت " التى كانت تصرف لنا مع طعام الصباح خلال أيام الحرب لأنه لا يدخن .

العريف "توفيق" معهد صناعى و شنبه الدوجلاس ومغامراته النسائية التى كان يقصها علينا وبيبته فى فمه يفوح منها دخان "الانفورا" ذو الرائحة الجذابة .

العريف "حمدى" (مهندس زراعى) و تحديه الدائم للنقيب "حمدى" و بيبته التى دائمًا فى فمه حتى عندما تكون مطفأة ومهارته فى تتبع الأهداف على شاشات الرادار.

الرقيب"جرجس" وبشرته البيضاء و شنبه الأشقر وهدوئه المميت وصداقته الكبيرة لزكريا الرقيب أول"زكريا".

نقيب (يوزباشى) "حمدى" قائد المحطة مهندس مكلف صارم نادرًا ما يبتسم و دفاعه الدائم عنا مع قائد الكتيبة للحصول على أفضل الامتيازات لنا.

و فى النهاية صديقى " فكرى" دبلوم عامل المولد الذى يمد المحطة بالكهرباء واعتناءه الشديد بنفسه ومظهره .

قبل بدء الحرب بعدة أيام شعرنا بأن شيئًا ما سيحدث فى القريب العاجل فقد صدر الأمر برفع درجة الاستعداد إلى "حالة أولى عمليات" أى الحالة القصوى وهذا يعنى قتال واختفت طائرات التدريب من شاشات الرادار لنصبح مطلقو اليد وبدأنا نعد أنفسنا للرحيل إلى الجبهة.. فى يوم السادس من أكتوبر اندلع القتال إنه يوم الثأر وتحرير الأرض و الذى كنا ننتظره بفارغ الصبر وبدأ جنود الكتيبة ١٤ ثائرين...ماذا نفعل هنا ؟!! إن مكاننا هناك على الجبهة و اجتمع قائد الكتيبة بنا و قال نحن فى انتظار الأوامر و فعلاً وصل الأمر وكان سرورًا عظيمًا سوف يكون لنا شرف الدفاع عن مصر و تحرير الأرض و دخول التاريخ وبدأ الجنود يهتفون

سنقاتل....سنقاتل... الله أكبر... الله أكبر.. تم فك الكتيبة فى لمح البصر ووضعها على القطار المخصص لنـــا و المتجـــه إلى الجبهة و بدأ يطوى الطريق فى سرعة و كانت له الأولوية فقد كانت تقف جميع القطارات الأخرى لتفسح له الطريق وكان يتم تغيير القاطرة له بسرعة و وصل إلى محطة "طنطا" على ما أذكر ليلاً و كانت وجهتنا سرية ولم نكن نعلم من أى مكـــان سوف ندخل الجبهة ثم أتجه إلى مدينة " المنصورة " و تم إنزال المعدات و علمنا أننا سوف نكمل الطريق بواسطة عرباتنا.. في الصباح حدث اشتباك بين قواعد الصواريخ المحيطة بمدينـــة " المنصورة " و طائرات العدو وتم إسقاط عددًا منها و فى المساء بدأ التحرك فى اتجاه " دمياط " و منها إلى "بورسعيد".

لا أستطيع أن أنسى أبدًا المصريين البسطاء مـــن فلاحينـــا الذين خرجوا على طول الطريق من المنصورة حتى دميـــاط يقذفون لنا كل ما يملكون من حلوى و طعام حتى البـــصل و الفجل والجرجير والدعوات من كـــل فـــم الله معكـــم.. الله معكم...

و نحن على عرباتنا "بشدة " القتال لقد شعرت أن مصر كلها أسرة واحدة)

أترانا لا زلنا ننتمى لهذه الأحاسيس؟!

أم أن حربنا كما يقول "الأبنودى" لم تعد واحـــدة، بفعـــل القيم السائدة، بفعل الظلم السائد و الفساد السائد:

"ده كل واحد في حربه

ما عادتش حربنا واحدة زى ما كانت..

لأ حربنا حربين: حرب الدولار والرغيف

حرب المدن والريف"

"ماحناش فى زمن الشعب ماحناش جسد واحد

ولا احناش لون ولا مواجهين ببنادقنا الغلط فى الكون.

ولا بندخل صعب

أخطف وفر بلا شعب بلا غيره"

" هذا أوان الأونطة والفهلوة والشنطة

تعرف تقول جود نايت وتفتح السمسونايت

وتبتسم بالدولار .. ؟

تقفل بيبان الوطن

وتقول بتفتحها.. ؟ وترمى مفتاحها..؟

وتبيع فى أمك وأبوك .. ؟

عيش... بن... جبنه .. لوارى .. ؟

ملعون أبوها الحوارى

أما القرى فدي فى بلد تانية

ومجتمع تاني."

عبد الرحمن الأبنودي

ماذا حدث؟!

كيف هانت وهنُا؟ وكيف استطاعوا قتل الإنسان بــداخلنا وتحويلنا إلى كائنات ممسوخة لا انتماء... لا أحلام... لا مبادئ لها.

أى شر ألم بنا؟ أية لعنة أصابتنا؟ و لا نستطيع منها الفكاك!

مستسلمون كما لم نستسلم من قبل، منهزمون أكثر مــن لحظة الهزيمة نفسها.

لم تهزمنا الهزيمة................ زمان

الطبيب "محمد مؤنس" المتخرج عام ٧٧ عايش كل ألــوان الطيف المنسحب على مصر خلال الأربع عقود الأخيرة، علــى حد تعبيره، من أقصى درجاته بهجة إلى أعمقها قتامة، غير أنه لم يرَ أكثر حزنًا من ذلك اللون الملقى بظلاله علينا هذه الآونة.

" بكيت كما بكى الناس من وجع الهزيمــة و كنــت أدرك وقتها بسنواتى الأثنى عشرة معنى أن يتنحى الــرئيس فى هــذا الوقت بالذات. كيف يتركنا نغرق الآن و يمضى هكذا؟ ألــيس ذلك وعي و كلام سياسة؟"

أهناك أقسى من الهزيمة التي يترنح من أثرها مجتمع بأكملــه؟ ويكفر بكل قيمه و آماله و أهدافه؟ طبعًا لا يوجد و معَ ذلــك

رغم تمرأ المجتمع وقتها إلى هذا الحد لم نكن كما نحن عليه اليوم كان هناك شيئًا ما لا زال باقيًا لم تفلح معه الهزيمة و لم تبدله.

" أقول لك الحقيقة لم أعرف لمصر وجه أكثر ذبولاً منذ وعيت الحياة أكثر من اليوم، انهزمنا و انتصرنا نسبيًا و قمنا ووقعنا، لكننا الآن فى مرحلة أفدح من مجرد الوقوع"

نحن فى مرحلة التركيع: جوعًا و مذلّة وتناقضًا.

بينما يسمح للكبار فقط بالتمتع و التقلب بين عدة مناصب عليا فى نفس الوقت و الجمع بين عدة مؤسسات أو شركات أو بنوك لترأس مجالس إدارتها و تدفق المرتبات الهائلة عليهم من هنا و هناك لتصل الى ملايين الجنيهات و العملات الأخرى الصعبة، سهلة الولوج إلى جيوبهم سنويًا والاستمرار فى المنصب حتى حشرجة الموت جالسين على الكرسي ذاته، يقف ملايين الشباب، هم ليسوا شبابا بالمعنى العمري هم من شارفوا الأربعين أو تجاوزوها و لم ينتقلوا بعد إلى دنيا الرجل المسؤول فى البيت والعمل فلا زواج و لا وظيفة و لا شئ على الإطلاق و كأنهم قد جمدوا فى لحظة ما بعد التخرج.

استمر: "اليوم تجدين شبابًا و ليس أطفالاً لا تشكل السياسة فى وعيهم أية أهمية، انتشر نموذج الولد الخنفس "لوسى" الذى كان فيما مضى أضحوكة الأفلام و اعتبار مظهره المخنث سبة فى حق الشهامة و الفتوة، لا يجد الكثير من مراهقى و شباب

اليوم أى حرج فى إطالة شعورهم و عقصها خلف الـرؤوس فى جديلة تحيرك إلى أى نوع إنسانى ينتمى؟! إذا ما رأيتـه خلـف عجلة القيادة للعربة الفارهة التى اشـتراها لـه الـسيد الوالـد المسئول!! أو النقيض الصارخ له من شباب متشدد غايته تطبيق قواعد الحياة فى القرون الوسطى و بالقوة".

كنا مجتمعًا وسطًا معتدلاً متحرر الفكر و الآراء متطلـع إلى الغد و محترمًا لقيم حقيقية و ليست مجرد مظاهر نفاق نحصل بها على صكوك الغفران الجماعى من أمراء المؤمنين الجدد.

حادثة اشتهرت فى الستينيات عندما ظهرت بـوادر التقليـد لشباب"الهيبيز" من إطالة الشعور و طريقة الملبس و ما إلى ذلك، حدث أن قام المشير "عبد الحكيم عامر" بالأمر بجمع كل هؤلاء الغير "مسترجلين" و تجنيدهم فورًا. و بالفعل تم تنفيـذ الأمـر ليتعلم شباب الثانوى و الجامعة وقتها من خلال الجيش معـنى الرجولة إذا لم يستطع البيت أن يعلمها لهم.

الجدعنة، الشهامة و المروءة، التى تلخص معنى الرجولة فى عرف "أولاد البلد"،حينما كانت هذه الصفة تطلق على أبناء المنـاطق الشعبية المعبأة بالمصرية الأصيلة بكل مميزاتهـا و بكـل نقـاط ضعفها.

و من الغريب اللافت للنظر أن المناطق الشعبية كانـت قلـب و جوهر المجتمع المصرى المتمثل فى أدبيات محفـوظ بـالفتوات و الحرافيش، و حيث نجد الطوائف الحرفية و الصنايعية التى تلف

أصابعهم فى حريـــر، المنـــتجين المبـــدعين، التجـــار الـــصغار والمتوسطين، تجار المَنى فاتورة و تجـــار الأزهـــر والموســـكى، الموظفين الميرى المجللون بالاحترام و الوقـــار، الحـــارة المـــصرية النموذج فى فيلم العزيمة و فاطمة، جيران نجيب الريحانى فى فـــيلم سلامة فى خير متعددى الطوائف الدينية ما بين المسلم والمسيحى و اليهودى، المصرى و الخواجة الإجريكى، المتكاتفون فى البحث و السؤال عن جارهم المسلم الغائب، بحكم العـــشرة و الجـــيرة والمحبة أو المتنافسين معه بحكم طبيعة الوظيفة أو الميول الشخصية و ليس لطبيعة المعتقد.

أليست مثل هذه القيم التى حرصنا عليها هى ما جعلت لنـــا خصوصيتنا و حفظتنا من أن نذوب فى ثقافة الإنجليز المستعمرين و مَن قبلهم، فرس كانوا أم إغريقًا و رومانًا، مماليـــك بهويـــات مشتتة أم أتراك شراكسة، فرنسيون حـــاملون لمـــشعل الثقافـــة والتنوير بيد بينما اليد الأخرى تعمِّر المدفع وتقصف البلاد وتأمر بقتل الشريف "محمد كُريم"، وغيرهم وغيرهم من كل الأجناس و الاتجاهات وكأننا نمتلك قوة سحرية جاذبة تغرى كل من كان بالتوقف فترة من الوقت على تراب "المحروسة"!!.

و مع ذلك برغم تذبذب الخط البيـــانى الـــصاعد حـــضارة وازدهار، المنحدر باندفاع لهاوية التراجع والانحطـــاط ، بـــرغم القوة والضعف، القمع و الثورة النادرة عليه، الـــسكون لحـــد الموت، والفوران الطاغى المتحدي للسلطة و السلطان والعميـــل والمستعمر، القاضى الظالم و الجلاد.. كان الظلم و أشياء أخرى،

يجمع المصريين بلا تفرقة، و إن ظهرت أعراض التشرذم والتعصب فى أوقات الهزال الحضارى و نتيجة حتمية لحكم سلطوى فاسد يستوى فيه مماليك مرتزقة أم حاكم دموى جاهل و إن ادعى الحكم باسم الله..ينضم الكل (و إن انشق خائن كان اسمه المعلم يعقوب المنبوذ طردًا مع رحيل الفرنسيين ١٨٠١ أو كانت هبة الجاسوسة المقبوض عليها بداية ١٩٧٣) لخندق الوطن، للأرض، للنيل الذى يتكاتفون معا لصد فيضانه. يتمتمون بالآيات أيًا كان مصدرها، لرفع البلاء مما كان خفيًا طى الأقدار، يدعون على الظالم و المفترى و ابن الحرام عندما تعجزهم الحيل، يقيدون الشموع لأولياء الله الصالحين فى الجوامع و للقديسين فى الكنائس و الأديرة، دستين شمع يا أم هاشم، دستين شمع يا أم النور، ويقاومون سلبًا بالصمت و الصبر والانتظار.

مصريون حتى النخاع، لنا ما يجعلنا نتيه فخرًا بأصولنا وتاريخنا،ولنا ما يجعل الخجل يبادرنا من سلبياتنا و أخطائنا و مع ذلك نعتز بكوننا مصريين.

نفتخر اليوم بكلمات إنجليزية و فرنسية و خليجية ندمجها قسرًا فى حواراتنا، نقبل بشراهة على الكبسة السعودى و الهريسة الليبى، و الماكدونالدز البلاستيكى، نلبس كرنفالاً من الأزياء يبدأ من عصور الحضارة الآشورية و ما قبل الأديان حيث تنتشر كائنات كئيبة سوداء فرضيًا هن نساء، و لا تنتهى عند ملابس ما بعد الحداثة، اقصد "لا ملابس" ما بعد الحداثة، حيث الجلد البشرى الطبيعى هو الرداء المفضل.

تلفنا اليوم عباءات الخليج الوهابية حتى حجبت عن عيوننا الشمس و عن صدورنا الهواء، بعد أن خرج من بيننا، منذ قرن كامل، أعظم مصلح تنويري عرفته المنطقة: الإمام محمد عبده.

واليوم أيضا تتزوى المناطق الشعبية لتكتسحها العشوائية التي يسكنها المتعطلون عن العمل، الباطجية، مرتع الجماعات المتشددة والتكفيرية، وكر تجارة المخدرات، حيث يتكدس الناس فوق بعض بلا ضوابط تكفل أدميتهم وحرماتهم و خصوصياتهم، حيث يقف القانون خارج دائرة تبعا. كثيرًا عن هذه المناطق، شوارع ضيقة لا تكفى لعبور سيارة إسعاف أو عربة مطافئ إذا ما اندلعت كارثة، حيث يلهو الأطفال في برك المياه الراكدة و القمامة الراقدة، و تحيط هذه المناطق شيئًا فشيئًا بقلب القاهرة و تهدد روحها اذا ما اندلعت شرارة الغضب الجائع.

ما أبعد اليوم عن الأمس.

"قوم يا مصرى مصر دايما بتناديك

خد بنصرى نصرى دين واجب عليك

يوم ما سعدى راح هدر قدام عنيك

عز مجدى اللى ضيعته بأديك

ليه يامصرى كل أحوالك عجب

تحني ضهرك و انت ماشى فوق دهب

مصر جنة طول ما فيها انت يا نيل

عمر ابنك لم يعيش أبدا ذليل

يوم مبارك تم لك فيه الصعود

حب جارك قبل ما تحب الوعود

ايه نصارى مسلمين قال ايه و يهود

دي العبارة دم واحد من الجدود"

سيد درويش

قصة ليست خارج السياق

القاهرة ١٩٧٨

استشهاد الفريق أحمد بدوى و رفاقه

مصادفة؟ أم وجهين لعملة واحدة أسمها المواطن المصرى؟

زمن الميلاد:

ولد الشهيد المصرى أحمد بدوى، فى(**١٩٢٧**) نفس العام الثامن بعد الثورة الشعبية فى العام التاسع عشر من القرن العشرين.

مكان الميلاد:

مختلف، ليس صعيد مصر جنوبًا هذه المرة،لكنه هناك أقصى الشمال، الذراع الأخرى التى تحتضن مصر، الإسكندرية، حيث المتوسط الذى يطل بمصرنا على الحضارات المجاورة، كانت

بالنسبة له فناره الذى يشع على العالم إبداعًا و يكون لها دائمًا شباك النور المطل على الدنيا.

النشأة:

نفس المجتمع الأربعيني الممتزج بكل الأجناس و الثقافات والأديان، يُنشئهما و يشكل وجدانهما.

سنة التخرج:

١٩٤٨ نفس الثامنة و الأربعين الحزينة، عام الهزيمة بالتشرذم وعدم التخطيط و الخيانات الملكية للشعوب العربية.

البداية:

نفس الحرب على الجبهة الفلسطينية، فى غزة، رفح وغيرهما.

المرور بحروب القرن العشرين سويًا ثم السفر إلى الاتحاد السوفيتى للتخصص الأكاديمي فى العلوم العسكرية.

١٩٧٣:

رتبة عميد و قيادة فرقة المشاة الميكانيكية السابعة، لكن فى الجيش الثالث هذه المرة، العبور من السويس، الطرف الجنوبى للقناة بدلاً من طرفها الشمالى فى حالة الراحل المصري عزيز غالى.

أحمد بدوى: نفس الاستبسال و الدفاع عن الأرض، لكن فى موقع مختلف، الوصول إلى الضفة الشرقية و تطهير مواقع العدو، الدفاع عن السويس بعد الثغرة، دخول عمق سيناء لخلخلة العدو

واكتساب أرض جديدة من بينها موقع قيادة العـــدو فى عيـــون موسى.

الشهيد أحمد بدوى يصمد أثناء الحصار ببسالة أذهلت العالم، يحتفظ بالروح المعنوية لقواته رغم أنف العدو المحاصر.

الترقى لرتبة لواء و قائد للجيش الثالث فى الثالث عشر مـــن ديسمبر ١٩٧٣ و المعركة لم تنته بعد.

سيناريو متطابق لقائد الجيش الثانى المترقى هو الآخر إلى نفس الرتبة و نفس الموقع القيادى في نفـــس التوقيـــت و الظـــرف التاريخى.

يتقلد الاثنان وسام نجمة الشرف العسكرى فى العشرين مـــن فبراير من العام ٧٤لكن العام ١٩٧٨ يأتي فيه المـــوت ليكتـــب النهاية للزميل و الصديق أحمد بدوى، الذى كاد هو الآخـــر لا يحضر فرح ابنة الرئيس السادات لعدم امتلاكه هو الآخر بدلـــة مدنية طوال الست سنوات صبر وإعداد ما بين ٦٧ و ٧٣، تمامًا مثل عزيز غالى كما فى ذكرياته عن هذه الفترة.

مصادفة؟!! أم حقيقة واضحة جلية، تفسر الأشياء البـــسيطة التى من فرط بديهيتها تحتاج أحيانًا للشرح لمن يستعصى عليـــه رؤية الشمس ظهرًا و القمر بدرًا و الاعتراف أن ماء النيل يجرى منذ سنين العمر المديدة للأرض المعمورة بالناس المصرية.

جنوب سيناء ١٩٨٠

استلم الفريق غالى موقعه كأول محافظ لجنوب سيناء بعد عمله العسكرى، وكانت المنطقة تحتاج لتأسيس و تنظيم، فكلفوا بذلك من اشتهر بالتخطيط و الإعداد المتناهى الدقة.

شرم الشيخ – إبريل ١٩٨٥

فى تمام الواحدة ظهرًا.. رفع الفريق فؤاد عزيز غالى محافظ جنوب سيناء علم مصر على شرم الشيخ ورفع الفريق يوسف صبرى أبو طالب محافظ شمال سيناء علم مصر على رفح.

الإسكندرية ١٩٨٨

عندما تقاعد كانت الإسكندرية هى مكانه معظم الوقت، رفض مطلقًا أن يكتب مذكراته عن الحرب، رغم الإغراء المادى الكبير، و كان يقول:"إذا كتبت لابد أن أعطى لكل ذى حق حقه ولن أسرد سوى الحقائق مهما كانت، و عندها قد يصيب كلامى أناس آخرين"

كان أسعد أيامه ذلك اليوم الذي يحتفل فيه الجيش الثانى بأبنائه و كان يعود شابًا فى العشرين و هو ينتظر العربة التى ستقله إلى حيث ينتمى ،إلى ما كان يعرف يومًا ما بالجبهة.

إسلام اون لاين الجمعة ٢٩ جمادى الثانية ١٤٢٠ هـ
الموافق ٨/١٠/١٩٩٩ م

قائد عسكرى قبطى يرد على تقرير الخارجية الأمريكية

القاهرة - قطب العربى

"أكد الفريق فؤاد عزيز غالى قائد الجيش الثانى الميدانى أثناء حرب أكتوبر١٩٧٣ أن التقرير الذى صدر مؤخرًا عن الخارجية الأمريكية بشأن الحريات الدينية فى العالم ملىء بالمغالطات والأكاذيب -حسبما نشر- فيما تضمنه من ادعاءات عن وجود اضطهاد ديني للأقباط فى مصر.

وقال الفريق غالى فى تصريحاته لـ (الحدث) بمناسبة الاحتفال بالذكرى السادسة والعشرين لانتصارات أكتوبر وبمناسبة صدور التقرير الأمريكى: إن التقرير استند على بيانات خاطئة من بعض المهاجرين فى أمريكا، وأضاف أنه لا يوجد أى تمييز فى المعاملة بين المسلمين والأقباط بدليل اختيارى قائدًا للجيش الثانى الميدانى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، و لم يكن هناك أدنى شعور بالطائفية، بل كانت العلاقة بيني وبين جنودى قمة فى المثالية ولو كان هناك تمييز فى اختيار القادة على أساس ديني لتولى غيرى كثيرون القيادة، كما أننى لم أكن المسيحي الوحيد فى الجيش بل كان هناك الكثير من القادة والضباط والجنود الآخرين والذين سقط منهم مئات الشهداء إلى جانب الشهداء المسلمين.. وأضاف الفريق غالى: أن أية مشاكل للأقباط تجد لها حلاً داخل مصر

سواء على المستوى الرسمى أو المستوى الشعبى، وبالتالى فـــنحن نرفض التدخل الأجنبي فى شئوننا الداخلية، رفضناه فى الماضـــى ونرفضه فى الحاضر ونرفضه فى المستقبل، ونقـــول للأمريكـــان عليكم أنفسكم وحلوا مشاكلكم قبل أن تبحثوا عن غيركم.

على صعيد آخر أكد الفريق غالى أن قادة إسرائيل يعملـــون فى إطار سياسة عامة سبق تخطيطها من قبل قيام إسرائيل ويقـــوم كل من يصل إلى السلطة منهم بتنفيذ جزء منها طبقًا لمـــا تمليـــه طبيعة الموقف العام السياسي والعسكرى، وإن قادة إســـرائيل لا تزال لهم مطامع في المنطقة كلها، وإن مستقبل الحرب والـــسلام في المنطقة يتوقف على الطرف الإسرائيلى لأنه يملك قوة ذرية لا نمتلك لها مثيلاً، كما أنه يمتلك قوة تسليحية تفوق الدول العربية مجتمعة، وهذا ما يصرح به الجانب الأمريكى الذى يحافظ علـــى هذا التوازن التسليحى بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة. غـــير أن هذه الأسلحة لن تخيفنا، فنحن لا نعتدى على أحد، لكننـــا سنحمي أنفسنا وسندافع عن أرضنا ضد أى عدوان"

يناير ٢٠٠٠(الرحيل)

جاءت النهاية صبيحة يوم عيد الميلاد المجيد، الذى تزامن مع عيد الفطر هذا العام منذ سنين عديدة. تري هل كانت مصادفة أن يرحل الرجل الذى لم يختلف عليه أى مصرى تعامل معه عن قرب، وجمع حوله مشاعر صادقة خالية من التشنج و الجهـــل، يرحل فى توقيت رمزي، و يودع الحياة فى هدوء بينمـــا يحتفـــل الجميع بالعيد؟

أكانت صدفة أيضًا، أن تشتعل بعد موته نيران الطائفية النابعة من أكثر مناطقنا فقرًا و تخلفًا؟

فى مجتمع هو بالتوصيف مجتمع عائلى، قبلى ينصر الأقـــارب مهما كان موقفهم.

تنتشر به عادات بدائية من الأخذ "بالثأر" و حـــق القتـــل للمحافظة على "الشرف" الذى لا يسلم إلا بإراقة الـــدم علـــى جوانبه و لا يزال يتسابق للحصول على جوائز ماراثون الإنجاب رغم كل مجهودات السيدة "فاطمة عيـــد" و إحبـــاط الـــبطلين الشعبيين "حسنين" و "محمدين".

مجتمع يعيش على الكفاف نهارًا، فإذا ما جاء المساء تحلـــق حول صندوق العجائب فى المقاهي يعيش الوهم، حكايات ألف ليلة و ليلة من قصور و رقص و غناء.

مشاهد بعيدة كل البعد عن تفاصيل حياته، كل مـــا فيهـــا فاحش، الثراء و العهر علي حد سواء: هذا يركب الطـــائرات، يهدى اللآلئ و المجوهرات يسفحها تحت أقدام الغوانى، نـــساء كالبدر فى لياليهم الخانقة حالكة الظلمة و هذه تملـــك الـــضياع والشركات، تبيع و تشترى فى الرجال المبهورين إلى حد البله من جمالها الفتاك. صراع على النساء و المال و القوة.

هنا فى هذا الحيز، المربع الضيق، كل شـــئ مبـــاح، ممكـــن التحقق.

كل الأوهام يبيعونها إليهم ليعيشوا الخيال عوضًا عن الحيـــاة، فبداية من رؤية الطعام الشهي والنساء الجمـــيلات إلى أقـــصى مشاهد الرفاهية التي يسمعون عنها يحقـــق في مخيلتـــهم حلـــم الامتلاك، الزواج و النجاح، حلم الفعل و لو أثناء النوم.

تخدر جماعي يذهب العقول و يسجن النفوس خلف أســـوار الظن بالإضافة إلى كل وسائل التسطيح و إعلاء شأن التفاهـــة و التغييب عن الواقع. (**تجحيش الشعوب** كما قال فى حلقة نقاش أحد المفكرين الوجهاء، و تجحيش من جحش كما هو معلوم).

أساليب تزييف الوعى و طمسه المحمولة على أثير موجـــات أجهزة إعلام و تعليم الدولة (التي بالكاد تشملهم بالحصر تعدادًا فى دفاترها، إن وجدت، و لا تبخل عليهم بالحسرة على حياقم كلما تنفسوا).. وما استجد من أطياف الترغيـــب و "زغللـــة" العقول و الحواس الخمس القادمة على متن الأطبـــاق الرقميـــة المزروعة الآن عوضًا عن بنيات الحمام و كبـــديل اســـتراتيجى لأماكن تخزين الذرة على أسطح قرانا و من فوق أعلى العمارات الفخمة إلى أكثرها تهالكًا و عشوائية فى مدننا، دليلاً على مجتمع ينعم بالمساواة.. و لكى تكتمل الصورة بكل الأضداد يتـــابعون بنفس النهم برامج الوعظ و الإرشاد الممولة من القنوات ذاتهـــا سالفة الذكر و التي لا تري شيئًا يصلح حال الأمة و يكـــشف الغمة إلا تغطية رؤوس النساء و عقول الجميع إن أمكن، فلـــيس هناك حال أحسن من هذه الأوحال، عفوا......... الأحوال.

بدلاً من حثهم على التفكير و إعمال العقل و التساؤل المندهش فضولاً لتحسين الحياة و الإسراع بالعمل الجاد وإطلاق خيال الإبداع.

التفكير و العمل والإبداع تلك الفرائض الغائبة.

و لمن يحتج ترفع في وجهه جملة " البارودي" الشهيرة:

"يا أبو العلا يا بنى و أطيعوا الله و الرسول و أولى الأمر منكم، و العمدة هيتجوزها... هيتجوزها، عقلك في راسك تعرف خلاصك"

فنفقد حتى القدرة علي إبداء امتعاض أو اعتراض.

"ممنوع من المناقشة ممنوع من السكات"

أحمد فؤاد نجم

عودة لموضوعنا، و بسبب يبدو في حقيقته واهيًا، بل مضحكًا، لتتناوله النفوس المكبوتة قهرًا على الجانبين فرصة لتفريغ الغضب من العيش و العيشة و "اللى عايشينها"، من الحاجة، من البطالة

من الكبت، من الإهمال و التهميش.

خناقة قد تحدث بين "أحمد" و "سيد أحمد"، بين "صمويل" و"مينا"، أو بينهم جميعًا ما الغريب فى هذا؟

لا شيء و مع ذلك يكون الغريب أن تلبس رداء الفتنة والفرقة و تتحول بقدرة الجهل المعشش في العقول و الصدور إلى نار كارثية تلتهم أول ما تلتهم البسطاء الفقراء الذين يحملون جميعًا نفس الملامح و يئنون معا من وطأة الحياة ومن وطأة التعامل مع أجهزة الأمن، التي لا تفرق و لله الحق في حسن معاملتها المميزة لأبناء الوطن، فإذا كان شعارها فيما مضى:

"الشرطة في خدمة الشعب" .... فلقد تغير إلى:

"الشرطة و الشعب في خدمة الوطن"

فإذا كنا نحن أنفسنا، المصريون، نمثل الوطن، بل نحن الوطن نفسه، الذى لا يمكن أن تمثله الجمادات من مبانى وأهرامات وأراضى فضاء، و أشياء من هذا القبيل يستبدلوننا بها،فأي وطن هذا الذي نحن بصدد خدمته جميعًا؟!

ليظهر لنا بوضوح أن هناك خللاً ما و أن لكل منا، شعبًا وحكومة تعريفًا مختلفًا لمعنى الوطن المخدوم!!!.

فلا يعقل بالطبع أن يكون المقصود هو اختزالنا فى شخص واحد ينوب عنا جميعًا ويزيحنا جانبًا لينفرد بتجسيد الوطن (المغلوب على أمره): هو ومن حام حوله من الحاشية والأجراء و التجار، المهنئين دومًا و المهللين، المصفقين ليل نهار والموافقين على طول الخط.

موافقة؟...............؟

موافقة.

أم أن وجود الرجل بيننا في حد ذاته كان رمـــزًا و إشـــارة، لزمن عاشت فيه قيم مثل الأصول و الواجب، الصح و الغلط ، العيب و المعروف و الكلمة الحسنة، الجيرة و الصداقة و العشرة الطيبة، "الجدعنة" و الكرم، و الذود عن الصحبة و بنت الجيران، لا اختطافها و اغتصابها جهارًا نهارًا، التـــبرك بالـــسيدة زينـــب "رئيسة الديوان" و بالسيدة العذراء "أم النور"، في إيمان عميـــق بجلالهما و قدرهما.

تقول السيدة نجوى غالى و قد اختنقت بالكثير من الـــدموع وهى تسرد وقائع الليلة الأخيرة:

"تعرض أبى لأزمة قلبية حادة أثناء وجود أمـــى بالمستـــشفى حينما اشتد عليها المرض، و كان يرفض دائمًا نقلها لأى مكان طالما يستطيع رعايتها بالمترل، غير أن وطأة المرض حينها كانت أكبر من احتمالها،وكانت أكبر من احتماله، فبعد دخولها بوقت قصير و نتيجة للمجهود الذى كان يبذله فى رعايتها حتى و هى بالمستشفى، كان فوق طاقته، فسقط مصابًا بنوبة قلبيـــة حـــادة مهددة حياته بشكل غير مسبوق هذه المرة، و هو المدخن السابق الذى يعانى قلبه من أعوام ممتدة من التوتر و العيش تحت الخطـــر والسيجارة التى لم تفارقه أبدًا.

رغم وجوده بالرعاية المركزة إلا أنه كان دائم السؤال عنها، و بعد يومين تدهورت حالة والدتى ورفضت الطعام،ولمح ذلك

فى أعيننا، فوجئنا به يتخلص من وصلات جهاز رسم القلب، وينزع أجهزة الوريد المغروزة أطرافها بذراعيه، و يمضى نحو الباب متجهًا إلى حيث ترقد فى الدور العلوى، وبينما نجرى خلفه، و الممرضات يستحلفنه العودة حتى لا يؤذين، و الأطباء يركضون خلفه لإثنائه عما اعتبروه مشهد غير واقعى يحدث لهم لأول مرة، نظر للجميع بحسم و قال:" كلمة واحدة أخرى لا أريد، أنا طالع لها، و إذا كان لابد من استمرارى فى العلاج فسأحصل عليه و أنا ملازم حجرتها"

و بالفعل تم انتقاله مع أمى فى نفس الحجرة لرعايتهما معا.

كانت أيام العيد تقترب ونهاية رمضان،وتنامت إلى سمعه أحداث الكشح، ضاعفت الأخبار الحزينة وجعه وزادت من آلام قلبه، نظر إلى وأنا استعد للذهاب وقد شعرت بغصة عميقة وبكيت و أنا أقبله مودعة:

"لا أعرف كيف اعبر لك عن شكرى و امتنانى ، لقد أعطيتنى أشياء لا تقدر"

بعد ذهابى، زادت وطأة النوبة القلبية، أيقظ أمى و أعطى لها ساعة يده، و قبلها :

"خللى بالك من نفسك" وخرج متحاملاً على نفسه متوجهًا للعناية المركزة على قدميه.

لم يشأ أن يستقبل النهاية منتظرًا لها مستسلمًا واجهها كما كان عهده دائمًا الهجوم بالمواجهة و ليس بالالتفاف حتى فى لحظاته الأخيرة و هو يرى الموت قادمًا.

ثم سقط فى منتصف الردهة.

هنا تنتهى مقابلتى مع ابنته.

و أخيرًا ترجل الفارس عن حصانه فى سكينة و أثر الانسحاب، فالزمن لا يعرفه و لا يفهمه و لا يجد فيه نفسه. لُف الجسد فى علم الوطن و سجى على عربة مدفع تقل البطل فى رحلته و مشواره الأخير.

من خلفه سار الجنود منهم من حمل أزهار و آخرون حملوا عنه اليوم نياشينه و أوسمته، المشهد مهيب يتقدمه القائد فى صمت جليل، بضع خطوات باقية و تستقبله الأرض الأم، ستحتضن جسده و يختلط بها يصير جزءًا لا ينفصل عنها بعد

اللحظة، ليعود من جديد يورق مع زهرات عباد الشمس ويكوّن مع رفات ملايين ملايين المصريين ذرات تراب هذا الوطن.

يبدو لى مشهد وداعه رمزيًا هو الآخر، لمعانى الاجتماع على مبدأ المصرية الخالصة بلا تقسيم طائفى أو عقائدى.

فى صباح التاسع من يناير عـــام ٢٠٠٠ شـــيعت جنـــازة **المصرى: فؤاد عزيز غالى**، عسكريًا من أمام مسجد آل رشدان بمدينة نصر و مدنيًا من كنيسة العذراء بأرض الجولـــف بمـــصر الجديدة (ممثلان لأماكن العبادة بمصر).

ليؤكد للمرة الأخيرة فى الوداع على القيمة الحقيقية الـــتى تجمعنا، بأننا، فى الأصل و البـــدء و حـــتى النهايـــة جميعًـــا، مصريون.

[٢١] ""شارك الرئيس محمد حسنى مبارك أمس فى تـــشييع جثمان الفريق فؤاد عزيز غالى أحد قـــادة حـــرب أكتـــوبر ١٩٧٣ والحاصل على وسام نجمة الشرف العسكرية، وقدم الرئيس واجب التعزية، إلى أسرة الفقيد.

وقد تقلد الفقيد قيادة الجيش الثـــانى الميـــدانى.، وعمـــل مساعدًا لوزير الدفاع ، ورئيسًا لهيئة التنظيم والإدارة بالقوات المسلحة، ثم محافظًا لجنوب سيناء."

[٢٢] " الراحل الكبير فواد غالى: رحم الله بطلنا الكبير الفريق فواد عزيز غالى، أحد أبطال حرب أكتوبر المنتـــصر، الـــذى كانت لى فرصة معرفته عن قرب أثناء عملى كمراسل حـــربي للأهرام فى جبهة القتال.

---

[٢١] ٢٠٠٠/١/١٠ الأهرام الصفحة الأولى

[٢٢] الأهرام ٢٠٠٠/١/١٧ الشأن المصرى.. بين قرن مضى وقرن مقبل بقلم/ محمد باشا

أذكر للرجل بطولته الفذة فى قيادة معركة شرسة مع العدو لتحرير أول مدينة مصرية هى مدينة القنطرة شرق، بعــد أن شارك مع مقاتلينا الأبطال فى تدمير ٧ مواقــع للعــدو، و٧٠ دبابة و١٠ طائرات وقتل مجموعة كبيرة من أفــراده الــذين كانوا يهددون المدينة والقرى المحيطة بها"

[٢٣]"منذ أن سمعت الرئيس الأمريكى بيل كلينتــون الــذى هبط إلى منطقتنا ست مرات ســعيًا وراء اتفاقيــات ســلامه المريب.. سمعته يعلن أن الفائدة الأكيدة التى خرج بهــا مــن مؤتمراته هو زيارة شرم الشيخ التي لم ير لها مثيلا وقــد تولــد لدى الإصرار المبيت على ارتيادها.. رغم أنــى كنــت قــد هرعت إليها عقب تحريرها.. ونجمة داود معلقة على فنادقها.. ولكن كيف السبيل إليها ؟"

"ثم ماذا عن هذا الاسم العجيب ؟

إن شرم لغة كما ورد في مختار الــصحاح مــن التــشريم والتشقيق والتمزيق.. فهل فكرنا فى اسم جديد لهذا المنتجــع العالمي أكثر إغراءًا وأيسر نطق؟! تبادر إلى ذهــنى الــصمود استرجاعًا لتصميمنا على تحرير أرضنا عشية تصريح موشــى

٢٣شهادة حق الأهرام ٢٠٠١/٢/١٩ منتجع عزيز

من مقال بقلم: المستشار / د. على فاضل حسن

ديان أنه يفضل الاحتفاظ بشرم الشيخ على السلام وكأنه كان يتحدث عن ضيعه ورثها عن أهله المناكيد!!..

لكن الاسم ثقيل على اللسان، إنما هناك اسم مقترح هين على كل من اللسان العربي والأعجمي:

عزيز ، إنه يرمز إلى اثنين من كبار قوادنا البواسل فى حروبنا مع إسرائيل.....

(العقيد) أحمد عبد العزيز قبطي مسلم الذى أذاق العصابات الصهيونية الهوان في حرب١٩٤٨ إلي أن سقط شهيدًا.....

و(اللواء) فؤاد عزيز غالى قائد الجيش الثانى الميدانى فى حرب١٩٧٣ قبطي مسيحي..

أليس فى الاسم تجسيد للوحدة الوطنية ؟؟ "

٢٤ " التاريخ لا يموت، ولا يمكن أن تمحو الأيام ما سجله الأبطال بأحرف من نور فى سجل العسكرية المصرية، وحققوا النصر، وأعادوا الكرامة، وضحوا من أجل وطنهم حتى آخر نفس في حياقم.

ومن بين هؤلاء الأبطال الفريق فؤاد عزيز غالى، الذى لم يكن فقط عسكريًا أدى دوره بمنتهى الحب والإخلاص فى

٢٤جيل عفيفي ٢٠٠٣/١٠/١٥ الاهرام

تحرير التراب الوطني، ولكنه كان أيضًا أحد حقائق وبديهيات التاريخ المصرى، والذى يؤكد كل يوم أن مصر شعب واحد، وأن الانتماء الوطني يسبق أى انتماء آخـــر، وأن صـــيحة الله أكبر المنتصرة فى حرب أكتوبر المجيدة، أطلقها كل المـــصريين، ولم يفرق رصاص العدو بين مسلم ومسيحى، واحتضن تراب سيناء الحبيبة شهداء مصر الأبرار دون أن يعرف دينهم لأنـــه كان يدرك أنه يحتضن كل أبنائه المصريين.

واسم الفريق غالى يعنى عند الإسرائيليين أفدح الخـــسائر وعند المصريين يعنى العبور، وتحطيم خط بارليف، ورفع العلم المصرى علي أهم نقطة تم تحريرها فى السادس مـــن أكتـــوبر عام٧٣، وكان قائدًا للفرقة (١٨) مشاة فى بدايـــة الحـــرب، وقائدًا للجيش الثانى الميدانى قبل نهايتها، قضى معظم حياتـــه العسكرية فى سيناء، وأصعبها السنوات الست الـــتى قـــضاها وهو يحلم بالقنطرة ويذاكر تفاصيلها حتى استطاع أن يعيـــدها إلى حضن الوطن، فهو محرر القنطرة."

"خرج إليَ الفلاح القصير المدكوك الجسم من خصه الطينى والضيق كأنه يطلع من تحت الأرض، وجهه مجـــدور وعميـــق الغضون ومحروق، ويده قصيرة الأصـــابع خـــشنة.حَـــشَّ لى الخضار بمنجل صغير مقوس وحاد السن، وأحسست مـــدى رهافة حركته ورقتها وحنوها وكفاءتها فى وقتٍ واحد.

وأحسست أن فى جسم هذا الرجل جدّى ســـاويرس وأبى وأولاد عمى بقطر ورفلة، وأخوالى الثلاث يونـــان وناثـــان وسوريال، وأن نظرهم جميعًا، معًا، فى عينيه الغائرتين الثاقبتين، وأننى لا أنفصل عنه ولا عنهم، وأن فى يديه تربة قلبى الملوثـــة الغمقة المعجونة بالطين لا تجفّ أبدًا"

ادوارد الخراط: "ترابها زعفران / رفرفة الحمام المشتعل"

مشاهد من أحوال مصرية: الفترة من ٦٥ إلى ٧٠

القاهرة ١٩٦٥

استقبل البيت اليوم طفلته الأولى، صغيرة ملء كـف اليـد، دقيقة التفاصيل و الملامح، لفها فى غطاء أبيض بفراشات وردية وأزهار زرقاء، و ضمها إلى صدره ، تأملها كثيرا وسطعت شمس من السعادة فى قلبه، خاف عليها من الضمة لتؤلمها فقبل جبينها وأعادها إلى المهد الصغير ذو الملائكة النحاسية التى تزين رأسـه حيث تنسدل الناموسية البيضاء الشفافة.

هذا كان أبى و الطفلة كانت أنا و البيت كان بيتنا الكـائن بوسط المدينة فى قاهرتنا التى يتجدد شبابها و تزدهـر، و تـنعم بسمعة عالمية يقولون عنها و يكتبون و يحللون، عاصمة العـرب التى تأخذ بدفة الأحداث فى الشرق العربى و العـالم الأفريقـى والأسيوى الذى يولد هو الآخر من مخاض الثورات و التحـرر المنفتح في قلب ظلمات القهر الاستعمارى.

عام مولدى شهد محاكمة تنظيم الإخوان المشهورة.

كانت حرب اليمن لا تزال دائرة.

رحل كل من: عباس محمود العقاد المفكر الكبير، مـصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر الأسبق و المناضـل الـسياسى، الملك فاروق، أخر ملوك الاسرة العلوية عن عالمنا فى نفس العام.

كرمت الدولة مرسى جميل عزيز فارس الأغنية

وكانت أم كلثوم قد غنت "أنت عمرى" فى لقاء السحاب.

صيف ١٩٦٦

صورة أبيض وأسود تجمع كل العائلة على شاطئ رأس البر، أعمامى و زوجاتهم، أولادهم وبناتهم، أمى و أبى، عايدة غبريال جارة جدتى الحميمة و أصغر أعضاء العائلة، أنا.

بملابس البحر وقف كل من الرجال و الأولاد و البنات والشابات ، وجلست زوجات الأعمام الأكبر سنًا و الجدة وصديقتها على كراسى بحر كبيرة بثياب صيفية تكشف عن قوام يتفاوت فى الرشاقة بحسب الأعمار، و إن اجتمعن على الأناقة البادية رغم عدم ظهور الألوان و التفاصيل. الهواء البحري يجعل الشعور الحريرية تهفهف على الخدود أو تطير.

يونيو ٦٧

"رن جرس الباب فى الواحدة صباحًا، صحوت من نومى مفزوعًا"

هكذا بدأ أبى الحكاية عندما سألته يومًا عما شعروا به فى ٦٧.

" وجدت "أحمد" واقفًا يستند على الباب يكاد يغمى عليه عندما فتحت له. كانت نظرته مشتتة، وجهه شاحبًا، لحيته نابتة،

شعره و ملابسه تفوح منهما رائحة الرمال والبارود، ارتمى على كتفى و انخرط فى بكاء مرير.

صحت والدتك، وحمدت الله أنك لازلت نائمة، لم يتكلم "أحمد" كثيرا فى تلك الليلة، جهزنا العشاء، مضغ بعض اللقيمات و ابتلعها بصعوبة و همس:

"أنام...عايز أنام"

عندما دخل الغرفة أغلق الباب، سمعناه ينتحب قبل أن يغلبه النعاس.

فى حوالى السابعة صباحًا، وكان خلف المنزل جراجًا ، بالصدفة ارتفع صوت آلة التنبيه لعربة نقل لدقائق، فوجئنا بأحمد يصرخ هستيريا ، لقد ظن أنها صفارة إنذار، لعدة أيام عانى من انهيار تام قبل أن يتماسك و يسرد ما حدث:

"لم تكن حربًا..لم تكن حربًا، ماتوا... كلهم ماتوا، لم نحارب.... لم تكن لدينا فرصة"

و بمرارة ذكر كيف أنه عاد من موقعه فى سيناء و حتى السويس ماشيًا على قدميه لا يكاد يصدق ما يجرى حوله و من السويس نقلوه مع غيره إلى القاهرة فى منتصف الليل.

كانت العربات و القطارات التى تقل الجنود و الضباط العائدين تدخل القاهرة بعد منتصف الليل و كانوا يقولون لنا

أيام الحرب الأولى أنها تقل أسرى و جرحى إســرائيليين، تمامًــا مثلما أوقعنا مئات الطائرات المعادية منذ أســابيع قلائــل، يــا للمفارقة، كانوا يتعاملون معنا كأطفال، بينما كنا صادقين فيما صدقناه من الأحلام و الأوهام و الأغاني."

يبدو تعليق "نجم" الساخر مكثف و فى الصميم:

"و أخيرا ولا آخر أخلاقنا بتتاخر

و مهازل و مساخر و هزيمة و تضليل"

"دي بلدنا و لا حولة ما بقاش فيها علاولة

وعوضنا على المولى فى ولادنا الشماليل"

استطرد:" فى ردهات مبنى الإذاعــة و التليفزيــون التقيــت بالفنانة المصرية "سناء جميل"، فى الأيام الأولى للحــرب و قــد تجمع العاملون فور سماعهم صفارات الإنذار، المرة الوحيدة التى التقى بها وجهًا لوجه كانت ملتاعة حزنًا على هؤلاء الــشباب الرابضين على الجبهة الآن فى مواجهة الموت، و لم يكن لها مــن الأقرباء أحد على خط النار عندما سألها أحدهم:

"أنا أبكى عليهم كلهم و على قلوب أمهاتهم المحترقة قلقًــا عليهم فى هذه اللحظة" أجابت.

لم يكن لسناء جميل أولاد كما نعلم، لكننى فى هــذا اليــوم رأيت أحن نظرة لأم فى عينى هذه السيدة العظيمة .

عندما خطب "عبد الناصر"، تجمع الناس فى الشرفات والبيوت، لم يسمع أحد الخطاب وحده، كنا نحتمى ببعضنا البعض من حالة الذهول التى أحاطت بنا، أنا نفسى مشيت فى المظاهرات التى خرجت تصرخ رافضة أن يتركنا، رافضة الهزيمة و مكسورة تهتف:

"هنحارب"

حتى و إن كانوا نظموها إلا إن الحقيقة المؤكدة أن كثيرين غيرى، آلاف يمكن ملايين خرجوا من تلقاء أنفسهم."

المشهد كلاسيكى، أو أصبح كلاسيكيًا، من منا لم يعد يعرف الضابط الشاب المنهار عقب النكسة؟

لا أحد.

غير أن المشهد حقيقى و بتفاصيله حدث فى بيتنا و كان أبواى شاهدين و فاعلين فى نفس الوقت.

عندما تخيلت الموقف استشعرت قسوة ما حدث. ذلك لأن صديق والدى هذا، و كان ضابطًا بالمدرعات، سلاح الفرسان، فارس أحلام بحق، مرح لأقصى درجة. كنا صغارًا و حتى اليوم متيمين به لفرط السعادة و البهجة التى كان يضفيها منذ يضع قدمه عندنا، كانت له القدرة على تحويل أصعب المواقف إلى نكتة و كان مغامرًا، متفائلاً، محبًا للحياة، شديد الطموح.

لم أكن أتصور أبدًا أن شخصًا مثله يمكن أن ينهار هكذا.

وعرفت أن الهزيمة لم تكن هناك فقط على خطوط الدفاع الأول أو الثاني أو ما شئنا من الأرقام، لأنها كانت هنا في قلب كل هؤلاء الشباب و العجائز ، الرجال و النساء الذين:

"حطهم السيل جميعًا من عل".

و أدركت أنه لابد كان وقعها قاسيًا تلك الأغنية على كثيرين غيره وقتئذ:

"قولوا لعين الشمس ما تحماش

لحسن حبيب القلب صابح ماشي"

و كان الناس من غضبهم يحوروها إلى:

" لحسن حبيب القلب راجع ماشي"

و كم كانت مرة تلك النكتة التي انتشرت أيامها عن العجوز العمياء:

"و عندما ربتت على كتف الشاب و أدركت أنه ضابطًا أسرعت تعيد له صدقته و قالت له:

أنتم أولى يا بني.."

سألت صديقي الذي يكبرني بعشرين عامًا قال:"في الثامنة صباحًا كنت أعبر الشارع الواصل بين العتبة و ميدان الأوبرا،

ذاهبًا أجدد اشتراك الأوتوبيس، طالبًا كنت فى الهندسة وقتــها، الموضة فى تلك الأيام استبدلت الراديو الترانزيستور الصغير الآتى مع جنود و ضباط حرب اليمن ليتعلق فى يد كل المصريين شبابًا وشيوخًا بدلاً من محمول هذه الأيام، كل من كانوا فى الـــشارع فى هذه الساعة كانوا يلصقون آذانهم بهــذا الجهــاز الــصغير ويديرون المؤشر نحو صوت العرب الإذاعة صاحبة الــشعار:" باقي ٢٤ ساعة و ندخل تل أبيب"، أصوات المذيعين المنبعثة من عشرات الأجهزة تعلن فى تحد و فخر أننا حتى الآن قد أوقعنــا عدة عشرات تقترب من المائة من طائرات العدو، تقولى عصافير و لا بط الفيوم فى موسم الصيد، ضــحك ضــحكة عاليــة، وأضاف أنا أضحك لأنى كلما تذكرت كم الفرحــة والزهــو الذى تملكنى لحظتها ثم تلاشى و انقلب إلى نقيضه بمجرد عودتى المترل و تحول مؤشر الراديو عندنا إلى لندن فى المساء، و ذهــولى بين ما أسمعه فى الإذاعة المصرية و ما تؤكده لندن من ألها الهزيمة المطلقة، المدوية و السريعة و كيف أن المصريين يفرون تاركين فى الصحراء كل معداقم و أننا لم نعد نملك من سلاح طيراننا شيئا يذكر.

بعدها وبعد ما تأكدت الكارثة،فى أواخر شهر أغــسطس، كنت أستقل أتوبيس النقل العام الذى يقلنى من ســكنى بمــصر الجديدة إلى العباسية، و نمر بما كان يعرف بصحراء مدينة نصر،

و طريق صلاح سالم الذى لم يكن معمورًا، و حيث تقع اليـــوم عمارات العبور و بانوراما أكتـــوبر ودار المـــدرعات، كانـــت ثكنات الجيش ممتدة بطول هذه المنطقة، و أمام إحدى المحطـــات وقف جنديان، من الطبيعي أن يقف الأتوبيس أمامهما، الشارع فاضى بل خالى بالمرة، إلا أنه وقف بعيدًا عن المحطة بما يقرب من الخمسين مترًا، وصعد الجنديان و هما يلهثان من الجـــرى وراءه، وإذا بالسائق يضحك بشكل هستيرى و يقول:

"معلش يا دفعة، أنا قلت أمرنكم إنكم تجروا وراء حاجة بدل ما تجروا من حاجة و أهو كله بفايدة"

لا أعرف ماذا كان يمكن أن يشعر به هذين التعيسين، إلا أن يكون الحزن و الخجل قد مزق قلبيهما؟

حنظل فى حلوقنا طعم الهزيمة، مالحة فى فمنـــا يـــا "نـــزار" القصائد، و المقاعد و الأشياء و ضفائر النساء. حزينة هى الأيام التى لونت زجاج نوافذنا بالأزرق الداكن فحجبـــت الـــشمس وأقامت تلك الجدران أمام بوابات المنازل، تسجن خلفها أحلام موءودة.

تسحبنا دوامة الانكسار، نفقد إحساسنا بذواتنا بعد أن كدنا نصدق أن شأننا مهم و مؤثر كباقي الأمم، وأننا نمثل ثقـــل مـــا بعدم انحيازنا الإيجابى المزعوم و نستطيع أن نتحدى و نجأر بهـــذا

التحدى، غير أن للتحدى شروط أخرى غير البلاغة اللفظية والنوايا الحسنة.

تبلعنا آلة الزمن بسرعة جنونية إلى الوراء فكرًا لنلوذ بأمجاد الماضى التليد من الحاضر غير السعيد و نصبح أسرى لكل ما كان أيًا ما كان، حتى لو كان تقمص حياة البدو فى مجاهل الصحراء و يصير "كان" هو فعلنا الأوحد.

توقظ الهزيمة من الماضى السحيق دراويش يلوحون بعلم الهوية الممزق وتبطل من الآن فصاعدًا مشروع القومية العربية والوحدة التى لا يغلبها غلاب والوطن الأكبر و الظافر والقاهر............

إلخ .....إلخ..... إلخ .

<u>إبريل ٧٠ – بحر البقر</u>

"ما شفش الرجال السمر الشداد فوق كل المحن

و لا شاف العناد فى عيون الولاد و تحدى الزمن

ولا شاف العمل سهران فى البلاد و العزم اتولد

ولا شاف إصرار فى عيون البشر

بيقول أحرار و لازم ننتصر"

بهذه الكلمات الحنونة كنا نستقبل أيامًا كثيرة عندما يـــشرق صوت "شادية" العذب يغني من خلال الإذاعة صباحًا، و كانت أمي تعلق دائمًا بنفس الجملة:

"لا بد أن هذه الأغنية تثقل قلبه " و كانت تقصد "عبـــد الناصر".

حتى في ذلك اليوم الذى فاجأ الجميع بضرب مدرسة "بحـــر البقر" الابتدائية، تلاميذ في مثل عمرى و أكبر قليلاً استـــشهدوا هذا الصباح.

خرجت الصحف يقطر من عناوينها الحمراء:

استشهاد ٣٠ تلميذًا في غارة إسرائيلية

(العنوان الرئيس لجريدة الجمهورية ١٩٧٠/٤/٩)

ما معني الاستشهاد؟

"إنه الموت النبيل، تضحية و فداء و دفاعًـــا عـــن الأوطـــان والمبادئ".

ترى أكانوا يدركون هذا المعنى و هم يركضون فزعًا مـــن وقع الانفجارات و أزيز الطائرات؟

أو عندما سقطت عليهم الشظايا تمزق الأجساد الصغيرة؟

ترى أى نوع من الاستشهاد كان هذا؟

"إنه الاستشهاد غيلة و الموت شرفًا كنتيجة لخسة القاتل وكمعادل لنذالته شديدة الحقارة".

هذه الكلمات و ما معناها ملأت الصفحات و ملأت الأثير في حينها.

إلا أن موت الأطفال كان معناه بالنسبة لأمهاتهم ببساطة هو: "موت أطفالهن" و أنهن لن يرينهم بعد الآن.

"إيه رأيك فى البقع الحمرا يا ضمير العالم يا عزيزى
دى لطفلة مصرية وسمرة كانت من أشطر تلاميذى
دمها راسم زهرة راسم رايسة ثورة
راسم وجه مؤامرة راسم خلق جبارة
راسم نار راسم عار ع الصهيونية والاستعمار
والدنيا اللى عليهم صابرة وساكتة على فعل الأباليس
الدرس انتهى لموا الكراريس"

صلاح جاهين

لم أع قطعًا هذه المعانى وقتها إلا أننى كنت أشعر بالخوف الحزين يلف قلبى عندما تناهى إلى سمعى و إدراكى ما حدث.

بعدها بسنوات عديدة و أثناء الدراسة بالكلية كان نفس هذا الشعور يعاودنى عندما شاهدت فيلم عن مذابح "صابرا

وشاتيلا" وصور ضحايا القنابل العنقودية، التى ستصادق ضحايانا إلى وقت غير معلوم، و يجعلنى أبكى فى كل مرة أسمع فيها أغنية للشيخ "إمام" يقول فى نهايتها "نجم":

" أول ما هنوفى بالوعد هنسمى

باسم اللى ماتوا صغار فى المدرسة و الدار

والمصنع اللى انهار فوق الصنايعية"

فى نفس العام، و قبل شهرين فقط، قصفت إسرائيل مصنع أبو زعبل ليموت الكثير من العمال البسطاء تحت أنقاضه.

"إحنا العمال اللى انقتلوا قدام المصنع فى أبو زعبل
بنغنى للدنيا ونتلو عناوين جرانين
المستقبل:"
"إدانة مستر نيكسون بقتل الأسطى ياسين
القاتل استعمارى القتلى وطنيين
عمال مدنيين نصارى ومسلمين"
"إحنا العمال اللى انقتلوا قدام المصنع فى أبو زعبل"

صلاح جاهين

القاهرة – سبتمبر ١٩٧٠

لازالت لحظة إعلان موت "جمال" حاضرة فى ذهنى رغم عدم تجاوزى الخامسة من عمرى آنذاك.

كان الوقت بلا شمس، دوت من كل الاتجاهات صـــرخات حادة يمزقها حزن عميق، فتحت أبواب الشقق، النوافذ، هـــرع الجميع على السلالم خارج العمارات، إلى الشوارع.

رأيت (طنط جورجيت) جارتنا الأنيقة تجرى حافية القدمين وقد غطت وجهها دموع كثيفة أزالت أمامها كحـــل العيـــنين وبدت الخطوط السوداء لها نفس المنظر لذلك الشريط الذى ظل لفترة يلف صورة "جمال" المبتسمة. الجميع رجال ونساء يبكون.

ماما منزوية على كرسى فى ركن الصالة و قد انسدل شعرها الأسود الناعم يغطى مع يـــديها وجههـــا،ترتمى فى حـــضن أبى وتستحلفه أن يصطحبها لرؤيته قبل الدفن:

"لازم أحضر الجنازة، أنا حكيت لك عن كـــابوس الأمـــس وأنا أراه يسقط مضرجًا فى دمائه، أرجوك...".

نشأت أمى يتيمة و كذلك كان أبي و لعل وجـــود "عبـــد الناصر" كان يجسد لهما صورة الأب المفقود.

في عام ٥٢ أكملت عامها الثامن و أكمل هو عامه الثـــامن عشر و ما بين عامى ٥٢ و ٧٠ مرت سنوات طفولة و مراهقة وشباب جيلهما.

بعد يومين حضرت ابنة عمة أمي و صديقتها المقربة فى نفس الوقت لتبقى معنا حتى عودتما.

جلست أمام التليفزيون الذى ينقل وقائع الجنازة، لا تتكلم واضعة منديلها على فمها تمسح به وجنتيها كلما بللتهما الدموع.

يقال أنها أعظم جنازة فى التاريخ. زهاء عشرة ملايين خرجوا وراءه فى القاهرة مشيعين معه كثير من الآمال و زهاء ملايين كثيرة بتعداد العالم العربي وقتها بكوا ورائه حلم الهوية المستقلة وجرأة حرفى اللام و الألف: "**لا**"

"موسى نبي عيسى نبى كمان محمد كان نبى

و يا قلبى صلى على النبى و كلنا نحب النبى

و كل وقت وله أدان و كل عصر و له نبى

و احنا نبينا كدة من ضلعنا نابت

لا من سماهم وقع ولا من مرا شابت

ولا انخسف له القمر ولا النجوم غابت

أبوه صعيدي و فهم قام طلعه ظابط

ظابط على قدنا و ع المزاج ظابط

فاجومي من جنسنا ما لوش مرا عابت

فلاح قليل الحيا اذا الكلاب سابت
ولا يطاطيش للعدا مهما السهام صابت

عمل حاجات معجزة و حاجات كتير خابت
و عاش و مات وسطنا على طبعنا ثابت

و إن كان جرح قلبنا كل الجراح طابت
ولا يطولوه العدا مهما الأمور جابت"

أحمد فؤاد نجم

القاهرة ١٩٧١

شيئان أساسيان كونا روح و جو البيت عندنا:

الصداقة و السينما.

كانت السينما فى بيتنا طقس و عادة مقدسة:

فأمى وصديقتها "طنط ليلى" تحضران حفلة الساعة الثالثة بعد انتهاء عملهما بشكل شبه منتظم وتعودان معًا إلى البيت عندنا، أبى يصطحبنا لمشاهدة الأفلام أيام الصيف فى الإسكندرية و رأس البر و شتاءًا بالقاهرة.

قد أكون صغيرة جدًا على تذكر مثل تلك التفاصيل غير أن هذه هى الحقيقة فأنا أتذكر بشكل يكاد يكون مطابقًا لتسجيل حى ذلك اليوم الذى أخذتنى فيه أمى من المدرسة و كانت بصحبة صديقتها و زميلتها فى العمل "طنط لوسى". ذهبت معهما إلى سينما راديو بوسط البلد وكانت قريبة من المدرسة، لمشاهدة فيلم "أنف و ثلاث عيون".أذكر فستان أمي وفستان صديقتها و تسريحة شعرهما التى تشبه قصة فاتن حمامة فى فيلم "الخيط الرفيع"، مدخل السينما فى ذلك الممر المليئ بالمحال.لن أنسى أبدًا لحظة دخولى صالة العرض المظلمة و قد تصدرت

الشاشة العملاقة المشهد، سحر أصابني، ما هذا الجو الرائع الشبيه بالحكايات و المليئ بالأطياف المدهشة، المفعم بالغموض و الفتنة. الشئ الوحيد الذى احتفظت به من الفيلم هــو منظــر شــعر "ميرفت أمين" الأحمر.

الصداقة كانت كلمة السر:

عندنا كان كل أصدقاء أبى المقربين و الحميمين معهم مفتاح لشقتنا، لا فرق بينهم و بيننا، فالبيت بيت الكل . من أتــى إلى القاهرة فى مهمة عمل، امتحانات، دراسات عليا و خلافه فهنــا مكانهم يبيتون و يذاكرون،ونجتمع كلنا على الغداء أو العــشاء نسمع ضحكات الكبار و حكاياتهم المشوقة و هم يتسامرون، أو يقترح أحدهم أغنية بعينها يتحمس لها فريق فيقوم فريق آخــر بمساندة أغنية أخرى لمطرب أو مطربة أخرى و هكذا.

نأكل ما تيسر، بلا خجل أو عقد، قد يكون غداء ملوكيًــا على شرف أحدهم لترقية، أو قرب زواج، أو حتى احتفالاً بحب يدب بين طرفين من أصدقائهما المشتركين و كان بيتنا هو مكان اللقاء الأول و الشرارة الأولى، كما يتواضع أحيانًــا إلى أكلــة صيفية عشقناها جميعا "جبن و بطيخ".

كان بيتنا فى وسط البلد نقطة التجمع إذا ما أرادوا الــذهاب إلى السهر فى الحسين و الجلوس على "مقهى الفيشاوى" المجــسد

لروح القاهرة، كما كان أيضًا مكان الصلح المحايد الذى يلجأ إليه من يوشك الطلاق أن يكتب نهاية قصة حبهما.

كانت أسماء مثل: سمير، جلال، أحمد، ممدوح، سعد، ليلى، بثينة، عفاف، صفاء، سارة، لوسي، تتردد في كل الأوقات.

استمر ذلك الزخم من الصلات الإنسانية مع أصدقاء والدىّ حتى مطلع الثمانينيات عندما انتقلنا إلى شقة أوسع فى حى بعيد عن قلب القاهرة التى اعتدنا عليها و قل تدريجيًا وجود أصدقاءهما: فمن سافر للعمل فى السعودية و الخليج، و من هاجر إلى الولايات المتحدة، و من مات.

و لم يبق معنا إلا "عمو أحمد" الضابط الذى لم ينقطع عنا إلى أن أصيب إصابة بالغة فى حادثة على الطريق السريع و هو في طريقه إلى فرقته، فقد معها مرحه ولبعض الوقت ذاكرته، ثم تقوقع ذاتيًا بعد موت أبي و اكتفى بالمكالمات التليفونية المتباعدة.

المهم أننا تربينا فى جو يقدس الصداقة وفى بيت لا يخلو من الناس الذين نحبهم، فنشأنا على نهجهم و مع دخولنا المدارس وفيما بعد الجامعة أخذت وجوه أصدقائنا تحتل الصدارة بين جنبات البيت.

و ترددت بكثرة أسماء مثل: فيفيان، سوزان، وائل، أنطوان، حنان، محمد، نانسي، نيللي، داليا، نبيل، هشام، أيمن، نهاد....

أم كلثوم

"لأم كلثوم" عندنا فى البيت وضع خاص فهى رمز الوجد والعشق و الإبداع الجماعى.

عند زواج أعز أصدقاءهما، لم يجدا، أمى و أبى، أجمل من تذاكر حفل "أم كلثوم" فى الصفوف الأولى كهدية للزفاف.

أم كلثوم: الست، هكذا فى كلمة واحدة تتلخص قيمتها عند المصريين إنها "**الست**" بكل ما تحمله الكلمة من دلال وولــه، غموض و إثارة.

الست،هى فقط و ليس أحد سواها. الجمال و الاكتمال والحضور الطاغى و الاحترام.

"يا قلبي آه الحب وراه ..."

دموع "**الهانم**" المستمعة الحاضرة الحفل فى قمة رونقها وبهائها بشعرها الأسود المصفف على أحدث طرز الموضة وقتها، العقد اللؤلؤ الذى يزين صدرها وأناقة باقى الحاضرات الشديدة الأنوثة بغير ابتذال راقص على المقاعد وفوقها كما يحدث اليوم فى مشاهد المحجبات!! الراقصات!!؟؟ على وحدة و نص والصارخات بحماس جنونى لتحية مغنى مخنث أو مغنية فى ثوب ساخن العرى.

أين هذا من صورة المجتمع الذى يستمع فى إجلال و طقوس تكاد تكون مقدسة أغنية "الست".

"الهانم" و **"الست"**، تري على من تطلق هـــذه الأوصـــاف اليوم؟

دار الأوبرا

لا زال خبر احتراق دار الأوبرا يحضر الذاكرة كـــأول مـــرة سمعت به. تصفحت أمى الجريدة وهمـــست بتـــأثر متنهـــدة: **"مصيبة!"**

ماذا تعنى؟ هل تكون أمى قد استـــشعرت قـــرب هجمـــة موجات الابتذال و التفاهة، و انتشار"السح" وطوفان "الـــدح" و"الأمبو" الذي أغرقنا وما شابه، غامرة أشكال الفـــن الرفيـــع الناتج عن مجتمع عالى الذوق ومنتج للثقافة، مكتسحة معها مـــا تربى الناس عليه من طرب و معانى جميلة مرهفة، تمامًا مثل مـــا حدث مع نهاية الحرب العالمية الأولى و انتشار الطقاطيق الخليعة على وزن :

"هات الإزازة" و " أرخى الستارة"

عمومًا سيساهم كل من الرخص و الركاكة فى هبوط المجتمع بأسره ليس فنا فقط بل سلوكًا و مناخًا عامًا يبلد الشعور و يمهد الطريق لكل ما هو قبيح و فاسد فسادًا فادحًا.

القاهرة ٧١

الصف الأول الابتدائي مدرسة الراهبات الفرنسيسكان، الفناء الواسع المحاط بأبنية أوروبية الطراز، يفصل بين المدرسة الفرنسية للمصريين و المدرسة الإيطالية للحالية.

البنات فريقان بشعورهن الطويلة والضفائرالمزينة بشرائط بيضاء حريرية، أو الشعر القصير بغصون الورد المحيطة بمقدمته، نقف طابورا ننشد السلام الوطني:

"و الله زمان يا سلاحي اشتقت لك فى كفاحى"

الراهبات بردائهن البنى و ووجوههن البيضاء الحنونة تحت غطاء الرأس الأسود المتطاير فى خفة، معظمهن إيطاليات (الأخت تيريزا، سانتينا، تيودورا، ادواردا، مارجريتا، كارمليتا) يجمعن البنات فى نظام صارم. المدرسات المصريات و اليونانيات والفرنسيات، يتمثلن فى وحدة تشكيلية رائعة بأثوابهن الأنيقة الملونة و رشاقة حركتهن أمام التلميذات على السلالم نحو الفصول.

"بابا... ماما... وطني... علمى... حرية... قومية... سلام... حمام... جندى بلدى شجاع".

أول الدروس التى نقشت فى عقولنا و حفظتها قلوبنا و غنتها أرواحنا.

القاهرة يناير ١٩٧٢

محمد فاروق، قامته الممشوقة، خضرة الحقول التي تنعكس فى لون عينيه و فى بشرته سمرة الأرض الطيبة الخصبة، فى صوته دفئ يغريك بالإنصات و التمتع بوقع الكلمات البسيطة كصباح الخير.

له ابتسامة عذبة تعشق صوتها عندما تتحول ضحكة مجلجلة بين جنبات الدوار الواسع الذى يلفه شجر الياسمين داير السور الخارجى، وقع خطواته الواثقة فى فناء الدار يفزع الطيور المستمتعة بوهج الشمس و ينبه الجدة العجوز لمقدمه فتسرع بخطواتها المتعثرة لتحتضنه و تنادى علي الأم المنهمكة بتنظيف البنية على السطح.

حبه الخجول لسهير فتاة المدينة ذات السابعة عشر، ذكريات عطلة الصيف عندما يجتمع شباب العائلة فوق السطح فى الليالى المقمرة و أحلامه البسيطة للمستقبل: البيت الذى سيبنيه فى الجهة الشرقية للجنينة الواسعة التى يمتلكها جده، و الأطفال.

محمد مثل ملايين الشباب فى سنه كان يؤمن بالحاضر وبالمستقبل معًا.

جاء يومًا لزيارتنا مرتديًا زيه العسكرى "الكاكى" كان لطيفًا هادئًا و هو يمنع أمى من تعنيف أخى الصغير الذى ألقى بساعة يده من الشرفة

" يا سنى... فداه".

لايغيب عنى هذا المشهد كلما ذكروا أمامى فيما بعد اسمه.

محمد وسيم كفتيان الشاشة الفضية فى ليلة عرسـه. تعلـو الزغاريد و هو يوقع العقد بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٧٣.

تعلو طلقات المدافع حوله و هو يكتب ثلاث جمل:

" أنا بخير. سلامي للجميع. البلد، طنطا، المحلة و القاهرة". ١٠ أكتوبر١٩٧٣.

محمد شهيد فى ليلة الثغرة.

يقولون فى البلد، كواحدة من الحكايات التى تدور مع الشاى فوق المصاطب و حين يجلس الفلاحون لتناوله فى الغيطان عندما يستريحون من الجمع، وقد تملكهم الزهو:

أن هناك فى مدخل الإسماعيلية ترقد دبابة إسرائيلية محطمـة عليها اسمه و بعض من دمائه.

ملحوظة:

كأبطال الملاحم الشعبية ظلت تعلو صورته المكبرة و الملونـة بهو الدار عشر سنوات و بجانبها مرثية من الشعر كتبـها عمـه الأزهرى أستاذ اللغة العربية، حتى بيعت الدار و شجر اليـاسمين وما تبقى من أرض الجنينة لذلك القادم متخم بدينارات الكويت

و قد كان أبوه أحد أجراء ملاك نفس هذه الدار من قبل، ليقيم بناية قبيحة من الأسمنت تعلو الآن على هامات النخل.

فرح تيتي (البلد صيف ١٩٧٢)

"تيتي" اسمها الحقيقي "ترنيم" إلا أن الجميع ينادونها "تـيتي". كانت جميلة خمرية بشعرها الأسود المنسدل، عيناهـا العميقـة الواسعة التي تذكرني الآن بأغنية "على الحجار":

" عيونك الحلوة يا بحرين عسل صافيين"

احتفظت بنسخة من الصورة التي التقطها لها المصور الأرمني القريب من بيتنا، عندما حضرت مع أمها لعدة أيام لشراء الجهاز ولوازم الفرح من القاهرة، كانت لقطة شـبه جانبيـة، أبـيض وأسود، وجهها مسلط عليه إضاءة تجعل الظلال المحيطة به إطار يبرز بهاء النظرة المكتحلة الضاحكة و قد ارتفع شعرها في شكل "شينيون" تاجًا على الرأس الجميل يزيد من إشـراق وجههـا الصبوح المبتسم دائمًا ذو الغمازات الجذابة. اسمهـا وملامحهـا يجعلان منها صورة حية لملكة فرعونية صغيرة.

كانت البلد، هي حلم من أحلام طفولتي فهناك نقضي أيـام بهيجة ، أختي التي لم تتجاوز الرابعة و أخي في الثانية يلهوان مع الكتاكيت و البط في فناء الدوار و أنا استمتع بالنزهات اليوميـة

مع قريبات فى مثل عمرى ما بين الحقول القريبة و زيارة بيوت العائلة الكبيرة.

الناس هنا يملؤها الخير، تراه فى تعاملاتهم و داخل البيوت حتى أفقرها، الأفران يخرج منها العيش سخن تضحك له الوجوه، على رأى أبى، الطيور و الأغنام وبنيات الحمام، المناحل، و الغيطان على اتساعها، كل شئ.

الأبناء على الجبهة: أخو العريس، أخوة العروس و أبناء عمومتها، غيابهم يلقى بظلاله شجن فى القلوب عندما تتذكرهم الأم و هى ترنو إلى الأفق حيث تأتى العربات من الطريق السريع عل أحدهم يأتى فى أجازة قصيرة لحضور زفاف الابنة العزيزة.

فرح "تيتى" كان احتفالية أسطورية بالنسبة لى فى هذا الوقت، فالغناء و الرقص الذين لا ينقطعان لعدة ليال و أيام، الفتيات الصغيرات الملتفات حول الطبالى لنقش الكعك و البسكويت، البهجة بكل ما تحمل من إشراق و إحساس مرح يلف القلب فيأخذه إلى سماوات رحبة عالية، الضحك من القلب (حتى يتعب) و من العيون (حتى تدمع)، حتى بات الفرح بمعناه المادى و المعنوى يمثله فى وجدانى:

"فرح تيتى"

موت ماما سلوى ١٩٧٢

هل كان آخر الصيف أم بداية الشتاء، عندما أعلن عن سقوط الطائرة التى تقل "ماما سلوى حجازى". **ذهب صوتها الرقيق بلا رجعة و اختفت صورتها الناعمة إلى الأبد.**

ضرب الإسرائيليون طائرتها المدنية لتسقط على أرض سيناء واحدة من ضمن قائمة لا تنتهى من الشهداء و الضحايا المدنيين.

صاروخ إسرائيلى يفجر الطائرة على الرغم من عدم قول قائد الطائرة المصرية أو مساعده:

"توكلت على الله"

٧٢- مظاهرات الطلبة

قرأت عما حدث فى ميدان التحرير فى قصة للأستاذ الكبير المرهف الحس "بهاء طاهر"، لا أعرف كيف تقمصتنى المشاعر التى هاجت بصدور هؤلاء الطلبة، و كيف سيطرت على هذه الأحاسيس الغاضبة، الملتهبة من سخطهم بسبب كرامة البلد المسفوحة و رفضهم عريها بهزيمتها كمغتصبة ذليلة. أكاد أرى عيونهم المتمردة على السكوت، وهتافاتهم أسمعها تصرخ بنداء واحد متسائل: "متى نحارب؟"

"قال يا أمى..؟؟؟ قال يـــا أبى..؟؟؟ هنحـــارب فى مولـــد النبى!!!".

يقودهم حماسهم للاعتصام معـــانقين النـــصب التـــذكارى وملتصقين بأجسادهم به و بأرضية الشارع.

لا تزلزلهم القوة الباطشة المحدقة بهم من كل جانب، بل على العكس تغذى فيهم نار الحرقة على البلد و تجعلـــهم يهتفـــون، يغنون و يحلمون باليوم الآتى منتصرًا ..لابد.

و لا يأبهون لخطر..........أباهم الذى فى المباحث أو ذلك الذى فى أمن الدولة .....

"أبانا الذى فى المباحث نحن رعاياك.

باق لك الجبروت باق لنا الملكوت

وباق لمن تحرس الرهبوت

تفردت وحدك باليسر إن اليمين لفى الخسر

أما اليسار ففى العسر

إلا الذين يماشون

إلا الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتراة العيون..

فيعشون

إلا الذين يشون

وإلا الذين يوشون ياقات قمصانهم برباط السكوت

الصمت وشمك والصمت وسمك.
والصمت أين التفت – يرون ويسمك.
والصمت بين خيوط يديك المشبكتين

المصمغتين يلف الفراشة..والعنكبوت."

أمل دنقل

أعيد تشكيل المشهد كلما اقتربت من المكان، أمسك بالتفاصيل الباقية، على قلتها، و أضع ما أختفى في خلفية المشهد: مقهى "أسترا" الشهير حيث مجلس المثقفين، وقد احتلت مكانه سلسلة المطاعم ذات الأكلات البلاستيكية النكهة.

كافيتريا "على بابا" حيث مقر "نجيب محفوظ" الصباحى المطلة على ساحة الميدان كشاهد عيان عاصر و لامس و شارك فى الأحداث لكنه هرم وأصبح اليوم كالساكت عن الحق لا يستطيع البوح، أخرس دون أن يكون شيطانًا، بل فقط ...عاجز فاقد النطق، وإن لم يفقد الذاكرة.

فالأماكن قد تكون أكثر إخلاصًا فى الاحتفاظ بذاكرة الأحداث تتشبث بها الحجارة و تجعلنا نستدعى الصور والأصوات و الأشخاص أنفسهم إذا ما تأملناها جيدًا، حتى يجيء

من يمحو ذاكرتها و ذاكرتنا معها بالإزالة و الهدم و إقامة أبنيـــة جديدة لامعة ملونة الوجه زائفة ليس هناك ما يربطها بالمكان من ذكرى أو حدث أو حتى ائتلاف معمارى، كأنما بنيت عن عمد لتمحى خلفية الأحداث و خلفية ذكريات هذا الوطن.

محل "إيزائفيتش"، النصب التذكارى و الحديقة التى تتوسط الميدان حيث التف حولها الطلبة، ساكنى الزمالك و بولاق أبـــو العلا، أولاد القاهرة و أولاد الدلتا و الصعيد النازحين للتعليم فى "مصر" "المحروسة" "المعزية"، طلبة جامعة القاهرة و عين شمـــس والأزهر، مسلمين و مسيحيين، فتيان وفتيات ممسكين بأيـــدى بعضهم البعض معتصمين بغضبهم لعدة أيام ســـويًا متكـــاتفين معنويًا و ماديًا، لا ترى نظراتهم فى الزميلات إلا الوجـــوه و لا تنزلق إلى النهود أو السيقان و ما بينهما.

(و من دون أن يصيح من يزجرهم لاختلاطهم هكذا جهارًا أمام العيان و يفصل بينهم فى المدرجات بل و يرفع اليوم القضايا على وزير التعليم العالى إذا ما تباطأ فى الفصل تحـــت ضـــغوط الفكر المتصلب المتسلط ذو الأصول القروية الساذجة و الـــذى يعانى من هوس و كبت جنسى لا حدود له بحكم العشرة مـــع المجتمعات النفطية).

"رجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد تانى
يا مصر إنتى اللى باقية و انتــى قطف الأمانى
لا كورة نفعت و لا أونطة و لا المناقشة و جدل بيزنطة
و لا الصحافة و الصحفجية شاغلين شبابنا عن القضيـــة
قيمولنا صهبة يا صهبجية و دوقونا طعم الأغانى"

نجم / إمام

السبت ٢٩ نوفمبر ١٩٧٣

اليوم الثالث لرمضان، فوازير ثلاثى أضواء المســرح بــدون "الضيف أحمد" هذا العام.

صوت أمى يأتى من الصالة به خليط من المفاجــأة، الفــرح والتساؤل الحذر لظهور خالي بدون مقدمات فى زيارة خاطفة لا تتعدى الدقائق، ليطمئن عليها كما قال و هو فى طريق عودتــه للجبهة.

"هكذا سريعًا؟ أنت لم تمكث سوى دقائق"

"أنا فى أجازة عدة ساعات فقط، العميد "**غالى**" أعطانى ١٢ ساعة لأفطر مع الأولاد فى رمضان، أراكم جميعًا بخير، سلمى لى على محمود و الأولاد"

كان أبي خارج المترل يومها و أخوتى نائمون، و أنا حضنت خالى و راقبته و هو يمضي، و طرق سمعى لأول مرة أسم العميد: "**الغالى**" كما سيلقبه بعدها كثيرًا خالى كلما حدثنا عن الحـــرب وذكرياته فى الجيش. قائده الذى عمل معه بـــشكل ملاصـــق و دائم منذ نهاية الاستتراف و حتى خروجه من الخدمة العـــسكرية نهائيًا مع نهاية السبيعينيات.

السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣

عدت من المدرسة، كانت أمى منهمكة فى إعداد الإفطـــار، أبى هو الآخر منهمكًا يكوى لى "مريلة" المدرسة، قميصه، تنورة أمى، يسلى صيامه و أنا أجلس أمامه أتصفح مجلة "تـــان تـــان" بينما أختى و أخى يلهوان. الساعة تشير إلى الرابعـــة و صـــوت الشيخ "النقشبندي" علامة أصيلة على أننا فى رمـــضان، أنتظـــر الإفطار بلهفة حتى أتابع أثناءه المسلسل الإذاعى "لفؤاد المهندس و شويكار" ثم مسلسل الأطفال"وليد و رندا فى الفضاء" علـــى شاشة التليفزيون، فجأة تعزف موسيقى حماسية ليعلن المذيع عن بيان عسكري :

" أن عبرت قواتنا قناة السويس......." * هنا القاهرة

و كلمات قليلة أخرى لا أتذكرها إلا أننى شـــعرت أن ثمـــة شيئًا كبيرًا قد حدث، "رددت بينى و بين نفسى أن معنى القاهرة هو المنتصرة كما قال لى أبى"

التفت إليه كان وجهه يعبر عن فرحة و خوف من ألا تكون حقيقة، أبعد المكواة جانبًا و نادي على أمى التى أتت مهرولة من المطبخ و هى تتساءل فى دهشة و فرح:

"معقول؟ بجد؟.... بجد؟"

أطرقت أمى بعدها و همست:

"أحمد"

نظر أبى مليًا لنا ثم موجها كلامه إلى:

"خلاص...من اليوم ٦ أكتوبر كتب فى التاريخ"

كانت أول أغنية تذاع بعد البيان هى:

" ماشيين رايحين حاملين فى إدينا سلاح

راجعين رافعين رايات النصر

حالفين بعهد الله نادرين واهبين حياتنا لمصر"

أغنية فيلم العصفور الممنوع وقتها، ليوسف شاهين التى تتردد فى خلفية النهاية و قد خرجت بهية تبكى و تصرخ

" لأ...لأ... هنحارب هنحارب "

(معلومة عرفتها فيما بعد عند مشاهدته بعد سنين كثيرة من منعه)

*البلاغ الخامس (أذيع فى الساعة الرابعة و ٦ دقائق):
"نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة، كما قامت القوات المسلحة السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحًا مماثلاً فى قطاعات مختلفة."

كنا أطفالاً عندما هل ٦ أكتوبر، لا زلت أذكر شكل و طعم اليوم السادس من الشهر العاشر من العام الثالث و السبعين، كان يوم سبت و هو يوم تصدر فيه مجلة كانت رائع اسمها

تان تان كما ذكرت، و أمى وأبى والبيت الذى يستعد للإفطار ما بين العصر و المغرب، والبيان ، البيان الذى طار به أبى و أمى من الفرحة، و فرحت معهما لأنى كنت أدرك بأعوامى الثمانية أننا "نحارب وانتصرنا، و عبرنا". رغم العمر الصغير و التجربة البسيطة بساطة الأشياء الطفولية، عرفنا أننا "عبرنا الهزيمة"، و لم تكن شعارات، كانت هناك قوة هائلة تدفع بالفرح و الفخر إلى قلوبنا الوليدة، عرفنا لذة الإنجاز على صغرنا. وبالنسبة لى شخصيًا فإحساس الفخر بالإنجاز كان مضاعفًا،ففى اليوم الثالث للحرب ، حادثت أمى تليفونيا زوجة خالى لتطمئن عما إذا كان لديها أخبار عنه، كانت قلقة فاليوم

نجح العميد "**غالى**" ورجال الفرقة ١٨ مشاة فى تحرير القنطرة شرق، و أنا أعرف الآن أن خالى من هؤلاء الرجال، بما إن العميد "**غالى**" هو من أعطاه تلك السويعات ليستطيع أن يفطر مع أولاده فى رمضان. أفهم الآن لماذا، إنما الحرب التى كانت فى طى الكتمان و الفرصة التى قد تكون الأخيرة لصغار يلتفون حول مائدة رمضان مع أبيهم.

وقع حب هذا الرجل "**العزيز**" فى قلبى عندما كبرت وأدركت معانى الإنسانية النبيلة. و لعل هذا الموقف الذى قبع فى عقلى الغير واعى، و لعل تلك الصورة للأب الذى يشبع عينيه من صغاره قبل الذهاب الطوعى لمخاطرة الموت، ثم يتأكد عند ساعة الصفر أن قائده قد أهداه ساعات من العمر لا تقدر يقضيها مع زوجة حبيبة و صغار مؤهلين بحكم نظرية الاحتمالات فى غضون ساعات أن يحملوا لقب زوجة و أطفال شهيد. و استمرت العلاقة بين حرب أكتوبر، و منظر خالى يحتضننى وأمى علي باب شقتنا، و اسم الراحل "**فؤاد عزيز غالى**" علاقة ترابط شرطى فى مخيلتى كلما استدعيت إحداها قفزت الأخرى للذاكرة.

[٢٥](صباح السادس من أكتوبر، هذا اليوم الخريفى الجميل الرائع البهاء، المعبق برائحة شهر رمضان الذي اعتبره أفضل

---

٢٥ الأهرام ٢١/١٠/٢٠٠١ ذكريات من أكتوبر بقلم : عبده مباشر

شهور العام، لروحه المعطرة بالإيمان التى تسرى بهدوء وعمق وانسيابية فى أفكار ووجدان وأبدان الصائمين، فتمنحهم قوة وشفافية وقدرة هائلة على الذوبان فى الكون، وقدرة على التسامح والسماحة.

فى هذا الصباح، تلقيت مكالمة تليفونية من صديق بالقيادة العامة للقوات المسلحة،نصحنى خلالها بالاستماع لراديو القاهرة طوال اليوم. ولم أكن فى حاجة إلي مزيد من الإفصاح. إنها الحرب.

وفعلا حصلت على راديو ترانز ستور واحتفظت به بجوارى، وبالرغم من البرامج المملة، واصلت الاستماع وفجأة.. دوى الانفجار.. وصل البيان الأول ما يفيد قيام القوات المسلحة بالرد على محاولات العدو للاعتداء على مواقع مصرية.. وهتفت من أعماقي.. الله أكبر إنه واحد من أكثر البيانات العسكرية ذكاء..لقد تعلمنا من العدو.. نبدأ الحرب.. ونتهم العدو فى الوقت نفسه بأنه هو الذي بدأ إطلاق النيران وبما يضعنا فى موقف الرد للدفاع عن النفس.

إنها نفس الحيلة التى لجأ إليها دائمًا!

ومنذ هذه اللحظة، لم يصبح أى شئ مثلما كان من قبل، كل شئ أصبح أكثر جمالاً..

لقد كنت على يقين من أن القوات المسلحة ستحقق نصرًا كبيرًا وهى تخوض أول معركة هجومية فى تاريخها المعاصر، فكل ما معرفته وتابعته بحكم عملى كرئيس للقسم العسكرى يؤكد هذا اليقين.)

الحرب على الجانب الآخر

[٢٦]*فى أثناء الحرب تم نشر قصيدة أرسل بها أحد الجنود الإسرائيليين، من موقع فى منطقة عيون موسى، إلى مجلة باماحانية الناطقة بلسان الجيش الإسرائيلى، ونشرت بتاريخ ٣٧٩١/١١/٨ (التقويم العبرى) جاءت هذه القصيدة كتعليق ساخر على أغنية إسرائيلية، تقول كلماتها:

" أعدك يا طفلتى الصغيرة أن هذه ستكون الحرب الأخيرة".

وكتب الجندي علي نفس النمط يقول:

"كنت طفلة صغيرة وكنا فى حرب ١٩٤٨،عندما غنيت لى أعدك أن الأمور ستكون على ما يرام.

ارتديت الزى العسكرى وألفت لى أغنية.ووعدتنى أن هذه هى الحرب الأخيرة.

قلت لى وقتها سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة.

---

[٢٦]*(حرب أكتوبر فى الرواية الإسرائيلية د. اشرف الشرقاوى مختارات إسرائيلية مركز الأهرام للدراسات السياسية و الإستراتيجية)

ومرت بضع سنين وعدت مرة أخرى للحرب فى معارك سيناء وحرب ١٩٥٦ومرة أخرى كتبت لى أغنية ذاع صيتها واشتريت اسطوانة ثم أخرى لأنك وعدتنى مرة أخرى: سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة. وذهبت مرة أخرى إلى الحرب والدماء.

وكتبت لى قصيدة جديدة، متفائلة وبريئة، طبعت على الفور فى كل دواوين الشعر.ووعدتنى مرة أخرى وقلت:

سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة. وهكذا وصلنا إلى حرب أكتوبر.

وسارعت مرة أخرى إلى تأليف المزيد من القصائد.

ومرة أخرى قلت لى: يا طفلتى الصغيرة أنا الآن كبيرة ولم اعد اصدق إن كان لابد أن نحارب فلنفعل ذلك. ولكن على الأقل، يمكنك أن تتوقف عن كتابة القصائد وإطلاق الوعود." وفى وقت لاحق على الحرب ظهرت فى المجتمع الإسرائيلى حركات احتجاجية عبرت عن فقدان الثقة فى القيادة السياسية. وأسفرت هذه الحركات فى النهاية عن سقوط اليسار والأحزاب العمالية التى ظلت تتولى مقاليد الحكم فى إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وتولي اليمين متمثلا في تكتل الليكود للحكم في عام ١٩٧٧ للمرة الأولي منذ قيام

دولة إسرائيل كما أسفرت الحرب عن بدء انتشار ظاهرة جديدة لم تكن معروفة فى المجتمع الإسرائيلى من قبل وهى ظاهرة الهروب من أداء الخدمة العسكرية. ولعل أكبر تأثير أسفرت عنه الحرب هو ظهور حركات سياسية جديدة على الساحة السياسية الإسرائيلية، ومن بينها حركه السلام الآن التى لا تزال تلعب دورًا هامًا على ساحة السياسة الإسرائيلية حتى الآن، وحركه جوش أمونيم المتطرفة، التى تعمل على نشر الاستيطان ذى الطابع الأيديولوجى فى المناطق المحتلة. كما كان من نتائج الحرب دعم حركات سياسية متطرفة مثل حركة أرض إسرائيل الكبرى، ودعم الأحزاب والحركات الدينية، التى توضح نتائج الانتخابات الإسرائيلية فى دوراها المتتالية مدى التزايد التدريجى فى قوهّا السياسية منذ ذلك الوقت وحتى الآن. بحيث أصبحت هى العنصر الحاسم الذى يتحكم فى تشكيل الائتلافات الحاكمة فى إسرائيل."

أليس شيئًا قريبًا من هذا قد حدث لنا وقت الصدمة من الهزيمة؟!

لا نختلف فى أشياء كثيرة نحن البشر، بل تتطابق أحيانًا ردود الفعل للأحداث العنيفة على المستوى الجماعى، و مع ذلك نعتقد

أن الاختلاف هو الأصل دائمًا و أن الأشياء و المشاعر المشتركة هي محض صدفة!

مارس ١٩٧٤

جاء اليوم أحمد ابن خالة أمي لم يزورنا منذ شهور، عنـــدما دق جرس الباب هرعت أمي مهللة نحو باب حجرتنـــا، حيـــث كان أبي يمسك بيد أختي الصغرى لتحسن الكتابة:

" أحمد رجع!"

بينما جريت أنا و أخي لنستقبله صاح أخي الذي لم يبلغ بعد أعوامه الأربعة و هو يرتمي بين أحضانه: "يا حبيبتي يا سينا أنت رجعت"

كان أخي يسمع كثيرًا في الأشهر الأخيرة عن الحرب و عن سيناء التي عادت و كان يعرف أن "أحمد" في الحرب و "محمد" في الحرب و" سامي" و" سمير" و "حسين" و "أسامة" والكثير من أقاربنا الشباب تمامًا مثل خالنا الوحيد و "عمو أحمد" صديق أبي الحميم.

ولأن مصطفى، أخي، كان يحب أحمد ابن خالة أمي كـــثيرًا، لم يجد في قاموسه الصغير ما يترجم شوقه و فرحتـــه الكـــبرى برؤيته مرة أخرى إلا هذه الكلمات، و من يومهـــا و نحـــن، في

البيت، نطلق على أحمد: "سينا" و من يومها و نحن نفخر به لأنه عاد من الحرب منتصرًا.

القاهرة ١٩٧٥

تزوجت أمي و هي بعـــد طالبـــة بكليـــة الآداب، القـــسم الفرنسي، و جئت للدنيا سريعًا بعد الزواج، مما أثقـــل العـــبء عليها إلا أن والدى كان دائمًا بجانبها. بعد عدة اعتذارات عن دخول الامتحانات وكانت قد وصلت إلى السنة الثالثة، جاءت أختى و تبعها أخى، وحولت أمى أوراقها للدراسة بقسم آخـــر وهو التاريخ.

ما أتذكره جيدًا أن أبى كان يجمعنا فى حجرتنا حيث نتكلم و نلعب و نذاكر بصوت منخفض حتى لا نزعج أمى و تستطيع التركيز و يظل معنا يلبى طلباتنا طوال فترة معسكر الامتحانات الذى تقيمه أمى في حجرة الصالون قبلها بشهر.

كان كثيرًا ما يذهب إلى الكلية ينقل لها المحاضرات عندما لا يمكنها عملها من ذلك و يشترى لهـــا الكتـــب و المـــذكرات، ويشجعها عندما يرتجف قلبها من هول كميات الملازم و المواد:

"أنت قدها و قدود يا جميل"

يقولها فى كل مرة يحضر لها الشاى و السندوتشات و هـــى تذاكر.

فى هذا العام تخرجت أمى من الكلية و أنهـــت بفـــضل أبى دراستها الجامعية.

القاهرة أكتوبر ١٩٧٥

استدعت "الأخت عايدة" مديرة مدرســة الراهبـــات أمـــى لتتحدث معها بشأن طلبها لتقديم أوراقـــى لامتحـــان الـــسنة السادسة بحيث أتجاوز الصف الخامس.

"ولماذا تحمليها عبء المذاكرة صيفًا؟ دعيها تعـيش ســـنها وتمتحن فى وقتها، لما العجلة؟"

و نظرت إلى مبتسمة وقد تعلقت بها عيناى ممتنتان فقد كان معنى موافقتها لأتخطى الصف الخامس أن أترك لميـــاء التـــاودى وزينب شطا و منال محمود و هناء الجندى و سوزان نخلة أعـــز صديقاتى.

نفس هذه النظرات المشجعة "للأخت عايدة" و رأسها الذى يومئ لى أن لا تخجلي يدفعنى لمواصلة مسابقة القـــرآن الكـــريم، عندما استدرت ناحيتها و قد تملكنى الرعب عند رؤيـــتى لجنـــة التحكيم التى تعتلى مسرح المدرسة.

فى كواليس مسرح الجمهورية حينما كانت الفتيات يضعن اللمسات الأخيرة استعدادًا للظهور على خشبة المسرح لتقديم رقصتنا الشعبية فى مسابقة المدارس احتضنت نظراتها تلك عينى و أنا أحكم ربط الحذاء و أصلح من وضع الطرحة على رأسى.

القاهرة ٧٦

يناير من كل عام له مذاق خاص، فهو بداية السنة طبعًا، ولا تزال الفصول فى مدرستنا مزينة و شجرة عيد الميلاد ستبقى حتى آخر الشهر، إلا أنه كان بالنسبة لنا فى البيت شهرًا مميزًا أيضًا لأنه موعد معرض الكتاب.

يصطحبنا أبى فى نهار جمعة مشمس إلى أرض المعارض بالجزيرة،وهناك نذهب لرؤية أمى حيث تقف مع زميلات وزملاء إدارة التوزيع فى جناح الأهرام.

كنت أيامها أتوق لهذا اليوم من كل عام فسنشترى كتبًا كثيرة و قصصا ملونة، وسنأكل خارج البيت على غير المعتاد، نلف فى أرجاء المعرض ونأخذ هدايا من الجناح الروسى، وعرائسه الماتروشكا المتداخلة.

لكن الأهم هو أننى سأرى أمى الجميلة، بشعرها الأسود الذى يحيط بوجهها المستدير الرقيق و يلتف خلف أذنيها ليبرز القرط الذهبى الصغير، عينيها التى يحدهما من فوق الجفن الأعلى

خط "الآى لاينر" السميك نوعًا وأحمر الشفاه ناعم اللون ما بين الفضى و الوردى و قد ارتدت هى و الزميلات سترة أنيقة من الصوف الأزرق الداكن بأزرار فضية ينيرها قميص أبيض حريرى من تحتها و تنورة من نفس القماش تنسدل لتقف تحت خط الركبة بقليل، حذاء أنثوى بكعب عالى و جوارب شفافة.

إذا أردت أن تعرف كم كن أنيقات جميلات فى هالة من الرونق و الوقار كفراشات تسبح فى النور عليك أن تسرع بمشاهدة أفلام الأبيض و الأسود، فسيظهر طيفهن مع ماجدة، فاتن، زهرة العلا و شادية.

لم يكن هذا هو مظهر أمى و زميلاتها فحسب بل كل من أحطن بنا فى تلك الفترة: الجارات، القريبات، المدرسات، المذيعات و النساء العابرات فى الطريق.

ظلت هذه الصورة البهية لأمى و زميلاتها محفورة فى ذهنى وقلبى، صورة أحببتها لدرجة العشق و ظلت نابضة بالحياة فى عقلى و لسنوات طويلة.

صورة أمى الجميلة تلك الفتاة الصغيرة اليتيمة التى جاءت من طنطا لتتعلم فى كلية آداب عين شمس قسم اللغة الفرنسية، التى أحبت ذلك الشاب المهذب الذى كان يذرع الشارع ذهابًا وإيابًا كى يلمحها و هى واقفة فى شرفة أختها بالإسكندرية. ليتزوجا و يقيما معًا، كشباب الطبقة المتوسطة العريقة و العريضة

آنذاك، بيت قليل الأثاث كثير الدفء و ينسجان على نول حريرى قصة مليئة بالحب و المشاركة الإيجابية يبنى فيها كل منهما الآخر.

فى هذا العام طلبنا من والد "فيفيان" الصديقة الصدوقة لأختى أن يتركها تبيت عندنا ليلة الخميس حتى نذهب بدرى إلى المعرض معًا.

كانت "فيفيان" كثيرًا ما تبيت عندنا و نبيت عندها ونستمتع بحلاوة جلسة "طنط مارى" أمها.

قضينا اليوم بالمعرض و أكملناه فى النادى الأهلى وعدنا مساءًا بعد أن تعبنا من كثرة ما ضحكنا و لعبنا و لم يبق فى قلوبنا الصغيرة مكان لفرط السعادة.

القاهرة ١٩٧٧

فى الطريق اليومى بين البيت و المدرسة كان مشهد الكنيسة المحاطة بحديقة صغيرة و المقابلة للجامع الممتدة أمامه درجات رحبة من الرخام الأبيض فى شارع "صبرى أبو علم" يصافحنى كل صباح و ظهيرة، و كان يثير فى نفسى دائمًا شعورًا لطيفًا إذ كانت خضرة الحديقة برائحتها العطرة بعد المطر و لون الرخام المغسول يجعلانى أتخيل نفسي أميرة أندلسية (أسطورية) أتنزه بين جنات قصرى.

إلى أن جاء يوم و احتلت صورة كبيرة جدا لزجاجة "سفن-أب" جدار المبنى الملاصق للكنيسة، كسرت المـــشهد، أفـــسدته ومن يومها لم أسترجع الثوانى القليلة التى كنت أتحول فيهـــا إلى أميرة و لم تعد تلك الدرجات الرخامية قصرى و لا تلك الحديقة جناتى.

يناير ٧٧

لم نذهب اليوم إلى المدرسة لسبب ما، بقينا بالمترل و شاهدنا مسرحية "مدرسة المشاغبين" على شاشة التليفزيون و هو توقيت غريب نوعًا ما لإذاعتها فلا نحن فى "العيد" و لا فى "شم النسيم" حيرتني الملاحظة!!. كان اليوم طويلاً مملاً و باردًا.

عندما عادت أمى من العمل، على ما يبدو فى غير موعـــدها كانت تتحدث عن مظاهرات و تحطيم واجهة الأهـــرام حيـــث تعمل،وكانت حزينة، فالمبنى الجديد الكائن فى شارع "الجـــلاء" كان بالنسبة لكل من عملوا فى مبنى "مظلوم"، هو بمثابة الابـــن الذى طال انتظاره و الذى من أجله سهروا و تنازلوا مرارًا عـــن المكافئات التى تعينهم على الأزمات المعيشية، حتى يـــرى هـــذا الوليد النور.

"خسارة كبيرة، زجاج الواجهة كان مستورد، و كان غـــالى جدًا"

كنت أتابع حديثها مع أبي بينما أغنية "سهير البابلى" و "سعيد صالح" تتصاعد نغماتها فى الفصل الثالث:

"يا للي معاك البكالوريوس   يادوب تركب أوتوبوس

يا موظف هتعيش متعوس   بين بتوع المزاجات"

و هنا خرج أبى عن صمته: "إحنا ناقصين، يحسرونا أكتر على حالنا"

كانت المظاهرات كما فهمت بسبب الأسعار، و الهتافات كانت تتراوح ما بين:

"يا جيهان الشعب جعان" و "يا جيهان قوللى للبيه كيلو اللحمة بقى بجنيه"

و كانوا يقصدون بالضرورة الرئيس و حرمه، يعنى كلها تدور حول الطعام و بسبب الأسعار فعلاً.

كانت هذه هى آخر مرة يعلو فيها صوت الناس منددين بالحكومة التى تضع رقابهم تحت مقصلة العوز.

فى الخطاب الذى وجهه "السادات" للتعقيب على الأحداث وصف المتظاهرين بالحرامية و ليس بالجياع: للدقة.

مارس ٧٧ موت حليم

مات عبد الحليم، الذى أحب الشباب الحب من أغانيه وصدقوا الثورة من خلالها أيضًا.

كان أبي كثيرًا ما يدندن ب:"على قد الشوق" و ذلــك إذا كان مزاجه كالمعتاد، أما إذا كان مزاجه يمر بحالة تحليق في سمــاء السعادة و الرضا فلن تسمع منه إلا:

" صافيني مرة و جافيني مرة ولا تنسانيش كده بالمرة"

و عندها كنت أعرف أنني إذا مــا انــدفعت إلى أحــضانه فسأنعم بدفء لا مثيل له و سيغمرني بقبلات ويقول :"تحــبين الأغنية مثلي"

الآن انتشر بشكل كبير مغني شعبي رائد، ستعتبر أعماله مــن لحام الكوز و تخريمه محبةً و غرامًا من كلاسيكيات الموســيقى في مرحلة متدنية ذوقًا و سلوكًا و مظهرًا ستعقب الفتــرة الحاليــة وتستمر لعقدين و أكثر؟؟!!.

و بشكل موازي سيحتل كل مختال فخور، بما جمعه من مال، مكان كل من يمشي على الأرض هونًا، تواضعًا بعلمه و عمــق ثقافته. فيختل الميزان و تصبح مصر واقفة على رأسها و تفكــر بقدميها.

سيكسب الزبال و النــشال و العتــال رهــان الــسباق الاجتماعي:

" و واد يا حموووووووووووووو........ التمساحة يا لاه"

تدوى فيما بعد معلنة نهاية الجولة بالضربة القاضية فيتروى المفكر و العالم و نساء و رجال الطبقة الوسطي المتعلمة، الأكاديميون و المهنيون، إلا من رحم الزمن الجديد و أسعفه بإعارة أو مشاركة فى تجارة و دخل فى زمرة الوجهاء الجدد.

لن تصبح البلد بعد اليوم "بلد شهادات صحيح" كما يستنكر عادل إمام.

معه كل الحق ، ما قيمتها اليوم.

"من لم يثر فى عهدى لن يعرف الثراء أبدًا"

(فرصة العمر و المغارة التى فتحها "بابا") و لن تغلق بعده فى وجه "كل رجال الرئيس":

من رئيس القسم فى المصلحة المتواضعة الموارد، إلى رئيس مجلس إدارة الشركات و المؤسسات ذات التضخم فى الموارد، إلى رئيس الوادى المنهوب من كل الموارد.

قاعدة علمية تاريخية فلسفية ثابتة دعمتها الأيام المقبلة.

أترحم اليوم على "عبد الحليم" و "بليغ" و "على إسماعيل" وأدعو "للأبنودى" بطول العمر و أنا استمع لأغنية المسيح:

"تاج الشوك فوق جبينه و فوق جسمه الصليب دلوقتى يا قدس ابنك زى المسيح غريب غريب"

دلوقت يا مصر ابنك زي المسيح غريب غريب ما لم يكـــن الوزير،والنقيب ومن لدائرة الحكم قريب، خاله أو على الأقـــل جاره.

و لا أتعجب من أن يصير الكتكـــوت أمـــيرًا بعـــد مـــوت العندليب.

نوفمبر ١٩٧٧

ذهب السادات إلى القدس، قال أبي أن ذلك شيئًا حسن.

و أضاف أن هذا يعني استقرار وسلام.

"يعنى لن تكون هناك حروب أخرى؟"

"بالطبع لا.....أكيد...أ...أعتقد ذلك!"

و تحمس أبي أكثر و بعث ببرقية تأييد للرئيس.

كنا كثيرًا ما نخترق الميدان الفسيح أمام قـــصر عابـــدين فى طريقنا إلى البيت، و يومها استوقفنا شاب مصرى و معه شابين ملامحهما غربية، أحدهما يحمل كاميرا و الآخر يحمل ميكروفونا:

"إنه التليفزيون الإسرائيلى يقدم برنامج عن زيارة القدس" قال الشاب المصرى.

"بماذا شعرتم عندما عرفتم خبر الزيارة؟"سأل الشاب الممسك بالميكروفون بلغة عربية فصحى سليمة.

"بالارتياح، فالسلام يعنى أن أولادى لن يتعرضوا لخطر الحرب، أنا بعثت للرئيس تلغراف تأييد" قال أبى.

"هل يمكن أن يكون هناك سلام؟" توجه لى المذيع بالسؤال.

ارتبكت قليلا، سلام؟! يعني نحب كل الناس؟ولا يقتلنا الآخرون و لا نقتلهم؟

فكرت، إنه قطعا شئ سهل، قد يكون أسهل من تلك المعضلات الحسابية التى تحيرنى.

ثم تذكرت قول والدى كلما وجدت صعوبة فى حل مسائل الحساب المعقدة، المستحيل حلها من وجهة نظرى الصغيرة، و هو يضحك و يضع الجريدة جانبًا ممسكًا بالكتاب ليشرح لى خطوات الحل:

"ما هذا المستحيل؟ لا يوجد مستحيل، أرأيت؟ كل شيء له حل لو أردت "

فقلت للمذيع علي الفور بعفوية:

" لا ...أقصد... لا يوجد مستحيل"

ظل أبى يذكر هذه الحادثة فترة طويلة، ليعلق بعدها:

" ألم أقل لكم دومًا أن فى انتظاركم مستقبل رائع"

١٩٧٨ – مدرسة المشاغبين

لم تحظ مسرحية بمثل هذا النجاح من قبل. لعـــدة ســـنوات والمسرح كامل العدد بينما إعلاناتها تغزو القـــاهرة مـــشيرة فى سابقة هى الأولى من نوعها إلى عدد سنوات العـــرض ١، ٢، ٣ وهكذا.

حين أذاعها التليفزيون ضحك الناس لدرجة أن استلقوا على قفاهم من كثرته ورفسوا بأرجلهم من شدته. كانت ظـــاهرة: تسجيلها على شرائط كاسيت يستمع إليها الناس فى كل مكان ويرددون حوارها الساقط، يحفظونه و يستخدمون مفرداتـــه فى التعاملات اليومية.

يتباهى التلاميذ فى المدارس بتقمص شخصيات "سعيد صالح" و"عادل إمام" بتبجحهم على النـــاظر و تحرشـــهم بالمدرســـة وسخريتهم من المعلم المجذوب الخالع ملابسه أمام الجميع راقصًا و صائحًا كطرزان فى مجاهل الغابـــة واضـــعًا هيبـــة المعلـــم فى الحضيض، ذلك الذى كنا:

"نوفه تبجيلاً حتى كاد أن يكون رسولاً".

ونحن، لم نسلم من هذه الظاهرة، فحدث أن كان عندنا أحد الضيوف و اقترح ناصحًا أن نسرع بتسجيل المـــسرحية أثنـــاء إذاعتها، مضيفا إنها ظريفة جدًا و: "شربات خالص"

عندما تألق المشاغبون فى رقاعة الحوار ووصل التهكم علـــى هيئة التدريس و إدارة المدرسة إلى الذروة، ضحك ضيفنا ضحكًا عنيفًا، خاطر موته من الضحك أرعبنى لحظتها، إلا أنه أخذ نفسًا عميقًا و أضاف معلقًا: "آااه ...شربات"

وإن كنت أرى الآن أنه "شرًا" قد "بات" و قام و لم يبرحنا.

تكتمل المأساة بإضافة الأب إلى قائمة المهزئين مع بزوغ فجر "العيال كبرت".

يلفت نظرى الصديق المخضرم إلى أن المأساة بدأت قبل ذلك بعقد كامل عندما تم التعامل بسخرية و إن كانت أقل حدة من "الشيخ" فى "حلمك يا شيخ علام"

وهكذا يتحول الفن، أداة تربية الشعوب و تهذيب و ترقيـــة سلوكها و مـــشاعرها، إلى أداة لانعـــدام تربيتـــهم و نقـــضى بالضحك و السخرية على القدوة و على هيبتها و نفتح البـــاب على مصراعيه للنيل من كل الرموز فيما بعد.

سبتمبر ۱۹۷۹

صور التليفزيون التى تنقل وقائع الاحتفال بتركيـــع (خطـــأ إملائي بسيط) بتوقيع مصر معاهدة معسكر داود، الترجمة العربية لكامب ديفيد، المشهورة باتفاقية السلام.

السادات و بيجين و كارتر، ابتسامات و شد على الأيـــدي بحرارة تنم عن السعادة بالإنجاز التاريخى.

تنطلق أغنية الموسيقار محمد عبد الوهاب الذي تم ترقيته بدون سابق إنذار من فنان مبدع مدنى إلى لواء عسكرى يلحن بالأمر ابتهاجًا بالمعاهدة و فى نغمات راقصة على المزمار البلدى تظهر فتيات بلبس الغوازى المعروف فى موالد الصعيد و بحرى وهـــن يهتفن:

"رجالة و طول عمر ولادك يا بلدنا رجالة

وغلاوتك يا بلدنا و الله مش محتاجة قوالة"

على بركة الله، كل شئ مهيأ الآن لنعيم السلام.

القاهرة – ١٩٧٩

زيارات عمى الأكبر"لبيروت" كانت مناســبات متكــررة للحكايات الشيقة و الهدايا الرائعة.

يقول عنها إنها قطعة من الجنـــة و لياليهـــا مثـــل "فينـــا": "ليالي كلها أنس ونغم و سعادة".

لابد أنها مدينة سحرية كتلك المذكورة فى حكايات شـــهر زاد.

كان هذا هو انطباعى عن "بيروت" عاصمة "لبنان"، "سويسرا" الشرق الأوسط، و كان يعزز هذا الشعور لقطات الأفلام القديمة على الجبال و شجر الأرز حيث يشدو المطرب البطل و حوله حوريات لكن من لحم و دم تمامًا مثلنا، أو يجرى البطل خلف البطلة فى مشهد عاطفى ينتهى هما إلى جدول مياه و من خلفهما شلال يتابع قبلتهما العميقة.

إضافة إلى حكايات أمى عن أحد جدودها الذى يقضى الصيف فى بلاد الشام فى بدايات القرن العشرين و يتزوج من هناك صبية مليحة أسمها "مارى" تعود لتعيش معه فى البلد و يبنى لها ذلك الدوار الواسع المحاط بشجر الياسمين. منتهى الرومانسية.

منذ مدة و تلك الحكايات لا تتردد عند زيارته لنا، فالحرب دائرة منذ أربع سنوات و الجرائد تنشر باستمرار صور لبيوت مهدمة و أشلاء بشر و حطام فى كل مكان.

أصبح من المعتاد قراءة خبر انفجار سيارة ملغمة، اغتيال زعيم سياسى أو دينى و خطف الرهائن. القناصة أصبحوا فى كثرتهم بدلاء عن الصحفيين و الكتاب الذين اشتهر هم لبنان.

انضمت إلى فصلنا هذا العام زميلة جديدة، اسمها "سناء" لبنانية هربت هى و أسرتها من جحيم الحرب. حلوة، بل شديدة الجمال، إلا أن بوجهها مسحة من الحزن أو الخوف، أو كليهما

معًا، لاأعرف. حضورها كان قويًا، رغم كونه عابرًا، لما حملته فى أعماقى من وله ببلدها، و زاد ذلك من فضولى لمعرفة أسباب الحرب الدائرة هناك فى تلك البقعة من الجنة على الأرض.

فسر لى أبى الأشياء قائلاً إن الظاهر هو صراع علـــى القـــوة والسلطة السياسية بين أبناء البلد الواحد لاختلافات فى المذاهب والعقائد والأديان،ويقال أيضًا لوجود النـــازحين الفلـــسطينيين ومصالح أجنبية و بلاد لا يحلو لها الصيد إلا فى الماء العكر وأشياء أخرى. لكن الحقيقة قد لا تكون كذلك فى واقع الأمر.

"إذًا لماذا؟"

"لقصر النظر و غياب العقل، ذلك على الأرجح هو الـــسبب الرئيس وراء مأساة لبنان" قال أبى.

تذكر اللبنانيون جيدًا كيف أنهم مـــسلمون و مـــسيحيون، موارنة و كاثوليك، ، دروز، شيعة و سنة، عرب وفينيقيـــون ، يمينيون، يساريون، قوميون و ناصريون، اشتراكيون وليبراليون.

تذكروا كل أوجه الاختلاف جيدًا و لم يبرحـــوا يتـــذكرون الاختلاف و يؤكدونه حتى نسوا حقيقة وحيدة تجمعهم علـــى أرض واحدة و بتاريخ ماضى و حاضر و مستقبل واحد:

أنهم كانوا رغم كل هذه الاختلافات لا يزالون لبنانيين.

بتردد اسم "سناء محيدلى" فى الجرائد بعـد عـدة سـنوات مصحوبًا بصورتها الهادئة تساءلت بينى و بين نفسى عن مـصير تلك الزميلة العابرة، فى أى أرض هى الآن و على أية شاكلة.

ملحوظة:

"سناء محيدلى" ذات السابعة عشر ربيعًا، أول استشهادية ضد احتلال بلدها لبنان.........و يبقى الانتماء الوطنى رغم كـل الحروب الأهلية و الطائفية العمياء هو الدافع على الاستـشهاد الاختيارى و ليس مجرد قتل الآخر الذى هو، فى هـذه الحالـة، العدو المحتل..

"منظر جانبى لفيروز (وهى تطل على البحر من شرفة الفجر) لبنان فوق الخريطة: منظر جانبى لفيروز،.. والبندقية تدخل كل بيوت (الجنوب) مطر النار يهطل، يثقب قلبًا.. فقلبًا ويترك فوق الخريطة ثقبًا.. فثقبًا.. وفيروز فى أغنيات الرعاة البسيطة تستعيد المراثى لمن سقطوا فى الحروب تستعيد.. الجنوب "

أمل دنقل

١٩٨٠

أول حدث صادم استلفت نظرى كان تفجير المفاعل النووى العراقى و نحن فى زخم المبادرة والاتفاقية و بنودها المعلنة و تلك التى أشيع أنها سرية؟؟ و فى خلال اقل من عامين كان اجتيـاح

إسرائيل الجنوب اللبناني و من بعده الدخول إلى بيروت العاصمة العربية التي حوصرت ثم احتلت وكانت الأولى في هذا السياق، لم نكن نعلم أن العواصم ستتساقط بعد ذلك و تـــثنى ببغـــداد و.............

ثم لن يعود للترتيب أدنى أهمية،فالسقوط الكائن بالاجتياح أو الغزو سيكون فيما بعد هو نفسه القـــائم بالتعـــاون والتـــهاون والهرولة.

وسيقول حال المتخاذلين من الأعراب:

"كبلتنا أموالنا و مصالحنا و كراسينا فاستغفروا لنا"

و لا أعرف كيف سنغفر لهم بيعنا، ولا أعرف كيف سيغفر لهم الله نخاستهم.

و سيتردد لاحقًا بين جنبات الوطن الأكبر من المحيط الهـــادر إلى الخليج الثائر و بالعكس صدي الأمر الأتي عبر الأطلنطي:

"ألا أيهـــا الـــوطن الكـــبيرألا أيهـــا الـــوطن الهزيـــل ألا أنحن!"..........فينحنون.

و تنتظر الشعوب الحزينة "صبح ليس من ليلهم بأمثل".

إلا إذا...........................

٦ أكتوبر ١٩٨١

اليوم عطلة العيد القومى، سيناريو معروف مقدمًا، سيذيع التليفزيون العرض العسكرى، يتبعه فيلم "الرصاصة لا تزال فى جيبى"، على أن تكون السهرة "العمر لحظة" أو "حتى أخر العمر".

طلبت أمى منى الاستعداد للذهاب معها إلى مصفف الشعر ودعنا أبى على الباب مشيرًا إلى وجوب العودة سريعًا حتى لا ينقضى اليوم هباء.

أتابع العرض بينما تقص أمى شعرها و تزينه، عيناى ما بين الشاشة و مجلة للأزياء. تحلق طائرات فى السماء فى تشكيل رائع و بينما ترتفع العيون ترصد الدخان الملون نسمع جلبة، طلقات رصاص وصراخ و يتم قطع الإرسال.

ماذا حدث؟ سؤال ظل يراودنا فى طريق العودة، عندما فتح أبى الباب قال لنا بصوت محايد:

" هل شاهدتم ما حدث؟ يبدو أنهم اغتالوا السادات"

من الغريب أننا استقبلنا الخبر بشكل محايد أيضًا! يمكن للمفاجأة، يمكن لتداخل مشاعر متناقضة أثارتها فى الآونة الأخيرة تصرفات "السادات" و ديموقراطيته التى لها أنياب عضت قيادات

دينية مسلمة و مسيحية، ووجهت ضد كتاب و صحفيين ومفكرين من كافة الاتجاهات والمآرب الفكرية والعقائدية.

يمكن لأن الشعور العام فى الفترة التى تلت الحرب مباشرة كان يميل إلى الاعتقاد أننا فى زمن جديد بحسابات جديدة أغفلت عن عمد المجموع لصالح النفر القليل المتكالب على سياسة الانفتاح (السداح مداح) الاقتصادى و بداية الانبطاح السياسى لأمريكا من الآن فصاعدًا.

إلا أن ذلك لم يمنع تأثرنا بالجنازة الرسمية المهيبة، الدولية الرفيعة و الغير شعبية التى شيعت جثمان الرئيس: رب العائلة المصرية، القائد الأعلى للقوات المسلحة، صاحب قانون العيب والبحث عن الذات وأخلاق القرية، بطل الحرب وصانع السلام (بعضا من ألقاب الرئيس المؤمن).

الناس لهم ميزان حساس للحب حتى و إن بدا للبعض غير منطقى أحيانًا. فأغلبهم بسطاء فقراء ينحازون لمن ينحاز إليهم ويعطى لهم الأمل و يجعل لحياتهم معنى عندما يوحدهم هدف قومى كبير. لا يفقه كثير منهم آليات السياسة و السوق (التى تدعمها أخلاق السوء).

يمكن لو كان العمر امتد "بالسادات" أكثر و بدأ سعار الانفتاح يخفت و طلت برأسها بشائر الرخاء (ذلك الرخاء

الموعود فى الأحاديث التليفزيونية مع الإعلامية "همت مصطفى" و خلاص الرخاء قادم العام القادم يا همت يا بنتى قومى افتحى له الباب)، المؤجل فقط لعموم الشعب و السابح فى محيطاته لصوصه.

يمكن لو لم يلعب ببارود الجماعات الدينية الذى انفجر أول ما انفجر فى وجهه هو بالتحديد، و كان خطر اليسار بالنسبة له هاجس يؤرقه فأراحه من الدنيا و متاعبها فكر الجماعات المتطرف المتخفى خلف عباءة الدين و محاربة الكفر بينما يتم تهريب أميرهم عن عمد إلى أمريكا معقل الشيطان فى عرفهم (؟؟؟!!!!).

يمكن لو كان السلام المبرم مع إسرائيل لم يفصح سريعًا عن وجهه فيستبعدنا من اللعبة، يحيدنا و يركننا جانبًا أمنًا جانبنا لينفرد ببقية الوطن يلتهمه على مهل بدأ بالمفاعل العراقى ووصولاً إلى اجتياح لبنان و يتسرب إلى الشعور الجمعى أن المسألة مسألة وقت و يجئ علينا الدور.

يمكن! كانت الصورة ستختلف عند الوداع!!

"مكتوب ما دام غنيت فى يوم النكسة

أغني يوم النصر

وأنا أحب أغني النصر فى بلادي

بشرط يبقى النصر نصر الناس"

"ورغيف ما يبيعنيش فى دكانه

وكرامة تهزم إهانة

و أحس ليا وطن و أحس ليا ناس

وحاجات ما ليهاش حصر

ساعتها أحس بمصر"

"مصر الغلابة اللى بتخلق مصر "

"كإنها مش بلدنا كإنها مش مصر

وكإنها طالعه من أكتوبر تخش سوق العصر"

عبد الرحمن الأبنودى

مصر من ٨٢ الى ٢٠٠٠

القاهرة ١٩٨٣

بدأت أمى فى الآونة الأخيرة، و خصوصا بعد عودة زميلات لها فى العمل من الخليج و السعودية، تردد بكثرة فكرة الحجاب، لم يكن أبى أبدًا متحمسا لهذه الفكرة و لم يشجعها يومًا:

"مظهرك يا حبيبتى فى منتهى الحشمة و الأناقة هكذا!"

كان والدي فى نفس الوقت مؤمنًا بحق دون ما تصنع أو رياء. ولا أزكيه على الله، فهو تعالى أعلم كم كان إنسانًا جميلاً راقيًا.

وبموضوعية وليس من منطلق أن: "كل بنت بأبيها معجبة"، فهو لا يفوته فرض، يقرأ القرآن الكريم باستمرار، يصوم و يزكى وتهفو نفسه إلى حد البكاء لزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، يهتز قلبه و مشاعره عند متابعته وقفة عرفات، خدومًا لكل البشر مصدقًا لقول الرسول عليه الصلاة و السلام ما معناه: "إن لله فى الأرض جنود يسعون لقضاء حوائج الناس"

وهو الذى زرع فى نفسى هذا الاتجاه و حببه لى. رقيقًا يحافظ على شعور من حوله، لا يطيق الكذب، متفانيًا فى عمله وفى خدمة أسرته. وفيًا لأصدقائه واصلاً لرحمه و بارًا بأمه.

إذ إنه فى مقتبل شبابه سنحت له فرصة لا تـــأتى فى العمـــر مرتين: أن يسافر إلى ألمانيا الغربية وقتها، للعمـــل و الدراســـة والإقامة،كان ذلك فى بداية الستينيات.كـــان يعـــد أغراضـــه استعدادًا للسفر بعد يومين، عندما دخل على أمه و هى ترتب له حقيبة السفر،لمحها تمسح سريعًا دموعها حتى لا يراهـــا، اختنـــق صوتها و هى تقول له كيف أنها ستفتقده و تخشى ألا تراه ثانية، فما كان منه إلا أن ضمها إلى صدره و ألغى سفره.

ماتت أمه فى نهاية ذلك العام و لم يندم أبدًا على عدم هجرته و كفاه تواجده معها لحظة احتضارها.

أبريل ١٩٨٦

وفاة "صلاح جاهين"

كنا على مقربة من موسم الامتحانات، الفصل كان يشير إلى الربيع حسب الجدول الزمنى.

لا أذكر على وجه الدقة كيف علمت بنبأ وفـــاة "صـــلاح جاهين"، و هل كان ذلك من الجرائد أو من الكلام الـــدائر فى الكلية و المنبعث من قسم السموم حيث كانت محاولات إسعافه اليائسة، الذى أذكره بشدة كيف اعتصر قلبى إحساس قـــابض مخيف عندما تأكدت أنه مات، و لن تصافح عيونى بعد ذلـــك رسمه البديع الرشيق كل صباح أعلى الصفحة يـــسارا بـــداخل

الأهرام، كيف سيكون للجريدة نكهتها الحريفة الطازجة بعد اليوم؟.

أخر ما رأيت له كان رسمًا لراقصة وسط طوابير من السيارات المزدحمة، تعليقا على ديوان "بهاء": "الرقص فى إشارات المرور".

من عجيب زماننا هذا أن يتهموا الرجل باستغلال موقعه للإعلان عن ديوان ولده! زمن أصبح فيه استغلال النفوذ فضيلة يتباهى بها علية القوم الجدد، و التى تتعدى بمراحل فكرة التعليق الضاحك على عنوان ديوان.

(سيجئ يوم قريب، يرد فيه أحد نجوم صحافة التصفيق المتواصل مستنكرًا اتهام البعض له باستغلال النفوذ فى حملته الانتخابية لرئاسة أحد الأندية الشهيرة المنيرة و هو يوزع بيمناه ويسراه شققا مخصصة على الورق عند التخطيط لمحدودى الدخل، معدومى الوجود عند التنفيذ).

هذا بعض ما ذكروه فى أسباب أزمته الأخيرة التى قضت على أخر معاقل صموده أمام السوقية و انهيار الأحلام لرجل فى رهافة حسه و ذوبانه الوطنى عشقًا لتراب هذه الأرض و لهذا الشعب البسيط، رجل يحمل قلب طفل، عقل فيلسوف و روح فنان.

رجل كانت بعض آماله رؤية الصحراء تخضر، و المدارس تطرح أولاد و بنات حلوين عيونهم سود و قلوبهم بيض يعرفوا

يحبوا و يحلموا أن نبني في كل قرية دار أوبرا و تماثيل رخام على الترعة.

أيًا كانت أسباب اكتئابه الأخير، فلن تغفر لنا القيم الجميلة التي كان يجسدها "صلاح جاهين" تهاوننا و تفريطنا في شخص مثله، و سيوصم الزمن الذي شهد اكتئابه و من ثم انتحاره بغلظة القلب و تهاوي المعاني السامية و الأحلام العظيمة لتفسح مكانا لبخس الأخلاق و المنفعة الشخصية و "الأنا"ذاتية التوحش.

بعد سنوات قرأت ذات صباح أن ذكرى وفاته يحتفل بها شعرًا و موسيقى بصوت "على الحجار"، أسرعت أبلغ "د.أدهم صليب " نائب القسم الذي يشاركني الاهتمام برباعياته و ما تمثله كقيمة وجدانية، صدمني تعليق "د. أشرف" النائب الآخر للقسم:

"و ده كمان يحتفلوا به على إيه، مش أفكاره الشيوعية هي اللي خلته و العياذ بالله ينتحر"

كنت اعلم تشدده الديني الواضح و الذي أصبح سمة الكثيرين و لكنني لم أكن أعلم أن لقلبه مثل هذه الغلظة.

"بسبب بشر مثلك على الأرجح كان انتحاره"

رددت بيني و بين نفسي.

القاهرة ١٩٨٦

ذهبت مع أختى اليوم إلى عيادة الطبيب الكائنة فى آخر شارعنا. فى انتظار دورنا دخلت سيدة بدينة تشبه طائر أسطورى بجناحيها، أقصد بخمارها الفضفاض الأسود، يظهر خلفها شاب غض تطول لحيته فى أجزاء متفرقة من وجهه و يسحب خلفه كائنا ضئيلا لا تكاد تتبين أبعاده من كثرة ما يلفه من أغطية من الرأس و حتى ما بعد القدمين، إنها فتاة على ما يبدو.

يتهامسون مع الممرض الذى يدخلهم سريعًا إلى حجرة الكشف و:

"لا تؤاخذوني يا جماعة أصل الحالة مستعجلة و صعبة"

بعد لحظات تخرج السيدة تجلس قبالتنا و هى تبكى فتبادر المنتظرات بسؤالها عن السبب:

"بنتى يا أختى و النبى عروسة من أسبوع واحد، لكن نعمل إيه، عين و أصابتها"

" ما لها؟"

"أبدًا بعيد عنكم من يوم الفرح و هى قاطعة الزاد، لا تتكلم و لا تتحرك تقول سهم الله نزل عليها، لا تنام و لا تذهب حتى يا عينى إلى، لا مؤاخذة يعنى، بيت الأدب"

و تستطرد السيدة و التى ظهر لنا الآن أنها الأم و الشاب هو العريس الغير سعيد الحظ، و تحكى بإسهاب عن عفة و أخلاق بناتها و خصوصًا تلك الصغرى التى أكملت دراستها فى جامعة الأزهر بنات و كيف أنها ربتها أحسن تربية فهى لم تكلم فى حياتها ولد أو شاب أو جنس رجل سوى الوالد، و أضطجعت فى جلستها و هى تتذكر العلقة الساخنة التى أعطتها لها و لأختها عندما تأخرتا عن موعد العودة ساعة كاملة رغم أنهما أقسمتا بأغلظ الأيمان أن مترو مدينة نصر وسيلة المواصلات الوحيدة المسموح لهما بركوبها كان معطلا لانقطاع الكهرباء

"لكن أبدا و حياتك، بالللل....حزام"

"بناتى؟ هو فيه مثلهن فى هذا الزمن! شوف يا أختى العباءة يلبسن منها اثنين فوق بعض، و للاحتياط سروال من تحتهما، يمكن يطير الهواء الذيل فيبقى السروال ساتر جسمهما"

انبرت واحدة تعلق:

"أنتى كده خنقاهم"

"لا و الله... أفسحهما، ما أنا كل حين أخذهما إلى حديقة المطار"

(تقصد الجزيرة التى تتوسط طريق المطار)

"طبعا ليلاً بعد صلاة العشاء و أخـذ لهمـا معـى بعـض المأكولات يتعشوا و نرجع على طول"

الحوار الدائر أمامنا من العبثية بما لا يسمح بمتابعة منطقه.

يدور برأسي ألف سؤال، ألا تدرك السيدة أن ابنتها في حالة صدمة قوية؟

أبعد كل هذا التعنيف والتخويف ووأد أنوثتـها والتهديـد بالويل و الثبور وعظائم الأمور إذا ما مر بمخيلتها فقـط مجـرد طيف رجل؟

فجأة يدفعونها دفعا إلى أحضان رجل غريب عنها لم تألفـه و لم تتعود عليه و من أول ليلة لابد أن تتركه يمارس في لحمهـا كل ألوان كبته العاطفي، و يجـب أن تـذعن وإلا لعنـها الله ولعنتها الملائكة و كل المقدسات إذا ما فزعت أو تناءت بنفسها بعيدًا كما تعودت و تمت برمجتها من قبل؟

ما هذا التنكيل المعنوي باستخدام سـيف اللعنـات الإلهيـة لإجبار امرأة على أن ترتمي و تتجرد أمام رجل أصـبح زوجًـا بموجب بعض الأوراق و بعض مظاهر الاحتفال.

(هي في البدء كانت إنسانًا كاملاً، فهكـذا أرادت المـشيئة الإلهية ، لم تتقبلها العقلية البدوية الجدباء بتفسيراتها القاحلة للدين إلا أن تكون سبيًا، لحما مجردًا لغريزة الرجل و بالتـالي تكمـن

وراءها كل الشرور و يكون من الطبيعى أن يتم وأدها معنويا بتغطية هذا الجسد الملعون و يا حبذا أيضا هويتها الكائنة فى وجهها الشيئ الوحيد الذي يميز بيننا و يصنع هوية شكلية على الأقل، ثقافة استوردناها حديثًا من صحراء نجد و الطائف).

"كان يجب عليك أن تحدثيها قليلاً عما ينتظرها فى ليلة كهذه" قالت السيدة المعترضة

"و أنا كان حد يعنى قال لى ، ده دلع بنات فاضى"

كانت أختى مثلى مغتاظة من الكلام و صعب علينا نحن الاثنتين حال الفتاة.

حكينا لأبينا ما دار أمامنا و ماذا يعنى كل هذا من تخلف فكرى و رجعية نراها لأول مرة فى حياتنا:

"ما هكذا تكون الأمور، فالزواج يا بناتى رحلة تفاهم وتكافؤ يجب أن تكون سعيدة منذ اليوم الأول، و الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم إنها علاقة أرقى من مجرد الحب، والهيام و الشهوة، هى خليط من المودة و الرحمة ، وهما كلمتين تعنيان ضمن معانى رقيقة كثيرة، التعاطف، الصداقة، المشاركة، الحنان، الاحترام و الاحتواء أى أرقى مشاعر إنسانية يمكن أن تربط بين اثنين"

"لابد أن هناك خللاً ما قد أصاب عقل هذه السيدة"

عقبت أختى و هى تضحك و تقلد طريقتها فى الكلام:

"و النبي يا أختي بالللل.....حزام"

بعد سنوات و ما بين سفرى و عودتى، تغيرت أختى كثيرًا، فأمثال تلك السيدة الغريبة أصبحن زميلات فى عملها و جارات بل ونجمات مجتمع يضربن جميعًا حصارًا صارمًا على الأفكـــار والمشاعر و المعتقدات و أصبحت أنا الغريبة، إذا ما تناقـــشت فى أى موضوع يعتبر الآن من المحرمات، و هن كثـــر، أو أبـــديت اعتراضى على شئ غير منطقى أو ألفت النظر إلى بديهية مهملة أكون أنا نفسى تلك التى:

"لابد أن يكون قد أصابها خلل ما فى عقلها......."

القاهرة ١٩٨٧

"لا....نحن نختلف فى كل شئ عن لبنان، لا يمكن أن تقوم بيننا حرب أهلية مثلهم.

فالناس هناك منعزلون و منقسمون على أساس عرقى طائفى فى الأحياء و المناطق، فلا تجدى شيئا يجمعهم علـــى المـــستوى الإنسانى، اللهم إلا الأسماء: فأنطوان يمكن أن يكـــون مـــسلمًا وأيضًا يمكن أن يكون مسيحيًا و كـــذلك محمـــود، إلا أنهـــم

منشقون تاريخيًا و عرقيًا إلى فصائل عدة، بينما نحن لسنا كذلك تجدين عائلات كثيرة مسلمة و مسيحية لها ذات اللقب كالبرديسى، المصرى، الفيشاوى، الفخرانى.... وهكذا، عائلات عديدة لها نفس الجدود و الأصول و مكان النشأة الذى يعود إليه سبب التسمية. هنا نتقاسم الأحياء و تظللنا نفس الأسقف فى البيوت، نتجاور و نتزاور و نقوم بواجبات العزاء و المشاركة فى الأفراح، نضحك لنفس النكتة و نحب على نفس الأغانى، و لنا نفس العيوب، تغضب زوجاتنا لنفس الأسباب و يهرعن لبيت الأب فتتدخل الحموات بنفس الطريقة، ده إحنا حتى لنا نفس العديد ونفس أغانى الفرح و كلهم فى الصعيد بياخدوا بالتار والشرف فى عرفهم واحد.

افتكرى "جميلة" و "هنادى" فى البوسطجى و دعاء الكروان.

لا.... نحن نختلف تمامًا عنهم، صدقيني.. شتان"

صديقى "نبيل خليل"، الطبيب، الطيب و الذى مع كل هذه القناعات هاجر إلى أمريكا، لأن الإحباط الذى يحجب الرؤية عن المستقبل شامل، فكثيرون من دفعتنا اختاروا واستسهلوا وسعوا إلى الهجرة لا يرضون عنها بديلاً، فهناك الدولار و المركز الطبى الرفيع، السيارة الفارهة، البيت ذو الفناء الخلفى و الحديقة. و لا نغفل الحرية، الاحترام العالمى لحامل جواز السفر الأمريكى.

(حتى فى بلادنا التى تلفظنا يوميًا يختلف تعاملها مع نفس الأشخاص باختلاف لون الجواز و جهة إصداره! شئ عبث يبعث على البكاء)

كذلك المنافسة التى تؤتى ثمارها بلا واسطة، فلا هذا ابن الدكتور فلان:

"استرح يا حبيبى و قل لى كيف حال بابا"

أو حذارى هذه بنت الدكتورة فلانة:

"مذهلة! يا نور عينى سلمى لى على ماما"

نماذج من أسئلة امتحاناتهم الشفهية فى كليات الطب المحترمة، وكلنا يعرف و كلنا صامت فيورث الطب و لا يدرس، **كأشياء أخرى أقل و أكثر أهمية فى المحروسة، و هكذا تقتل فى النفوس كل بارقة أمل.**

إلا أن أكثرنا بقوا بصدور عارية و بيدين خاليتين وقد ولوا ظهورهم للحائط و وجوههم شطر الغد الجديد الذى لا يأتى ليواجهوا: الأصعب.

"جاء طوفان نوح ها هم الحكماء يفرون نحو السفينة"

"صاح بي سيد الفلك — قبل حلول السكينة:

"انج من بلد .. لم تعد فيه روح

قلت: طوبى لمن طعموا خبزه..ى الزمان الحسن

وأداروا له الظهر يوم المحن"

"كان قلبي الذى نسجته الجروح

كان قلبي الذى لعنته الشروح

يرقد –الآن– فوق بقايا المدينة

وردة من عطن

هادئًا..بعد أن قال لا للسفينة ..و أحب الوطن!"

أمل دنقل

قال لي صديق شبراوى قديم:

"الناس تغيرت، لم تعد كما كانت زمان، أيام كانت الأطباق تتداول بين البيوت:

"أم تريز" تهدى لنا طبق الكعك فى يناير و أمى، الحاجة "أم محمد" لا ترده فاضى، عيب، هذه حلوى من السيد البدوى "أبو محمد" اشتراها أمس، و هكذا.

الزمن اختلف و إن لم تختلف أمى و لا "أم تريز"، فلم يعد الجيران يتزاورون مثلما مضى و أصبحت العيشة ضنينة و الناس يادوب، يادوب بالعافية عايشة"

المسجد القريب منا يصدر أصواتًا عالية ،لا أميز الجمل بداية و لا أستطيع التركيز فيما أقرأه يتضح الحديث بعض الشئ وأكون قد فرغت أو بمعنى أدق يئست من التركيز فى القراءة.

ما هذا؟! لابد أنه مجنون ذلك الزاعق فى الميكروفون فهو يدعو الناس إلى مقاطعة التجار المسيحيين أو التعامل معهم، كما يشدد على وجوب طاعة المرأة طاعة عمياء لزوجها و اتشاحها بالسواد و الكثير من الأغطية لتدارى هذه العورة الضخمة التى تحملها ألا و هى جسدها على أن ذلك لا يمنع وقوفها متجردة من كل ملبس راقصة و متقلبة فى الهواء إرضاء لنزوات ورغبات الزوج طبعًا. حديث يفضح سوءات المتباهى بعلو صوته: الضمور الفكرى والجهل القائم وراءه.

ظاهرة استشرت بعد أن ضحك الجميع على قفشات الشيخ "كشك" المتخذة من"أم كلثوم" و "عبد الحليم حافظ" و غيرهما مادة للسخرية و قالوا: "يا سلام".

فى محاولة إيهام الجموع الغفيرة بالشجاعة فى النقد، بلغة مبتذلة و بأسلوب سوقى فظ، للتنفيس عن البشر المستعدين لتقبل أى شئ كدوامة فارغة تستقطب كل شئ بسبب قوة طاقتها السلبية الجاذبة، بعد خلو الساحة من النشطاء السياسيين أصحاب الفكر و المشروع الوطنى و التوجهات التحررية.

تم تسجيل خطبه و بانتشارها انتشرت الموضة و تنافس الخطباء فى التدنى لغةً و فكرًا و محتوى فى سباق لتيار يكرس لمفاهيم و قيم غريبة ويجر معه هابطًا الذوق العام المتدنى أصلا بحكم غياب المثقفين عن الاحتكاك بالجماهير و إيثارهم السلامة و تربية العيال، تراجع الإبداع خوفًا من سطوة الصوت المتنامى الشاهر تهمة الإلحاد و الكفر فى وجه من يعتصم ببقايا مبادئ التنوير، وذلك فى وحدة وطنية نادرة حيث يتفق المتشددون، مسلمون و مسيحيون، على محاربة الإبداع.

تخلت المؤسسات عن أدوارها مكتفية بالفرجة بدأ بالجامعة المعينة بشرط انتفاء أى توجه سياسى حر مرورًا بالصحافة المستأنسة و الإعلام المسطح، وصولاً إلى اختفاء الحياة الحزبية الحقيقية و ليست البلاستك (لزوم الديكور السياسى)، حيث ينتمى الشباب جميعا بناء على مصريتهم و مصريتهم فقط يعملون تحت راية حزب ما و وفقًا لمبادئ وطنية. و لا يكون الكلام فى السياسة كلامًا قبيحًا و الاشتغال بها عمل مخل يستحق علقة ساخنة مع الجرسة و التجريد من الملابس.

سكت الكل عن القبح والغباء حتى بلعنا التخلف و بالتالى نمى التعصب الفكرى و الدينى و تفرق دم الانتماء بين القبائل.

أصبح من المألوف ألا يذهب المسلمون إلى طبيب مسيحي مثلاً و العكس صحيح و لا يقوم صاحب الشركة المسيحى بتعيين المسلمين إلا فيما ندر.

و يتسابق الكل للحصول على زعامات وهمية و يتبع الكـــل أمير مكيافيللى و لو بالتحالف مع الشيطان فى أى مكان حتى لو كان الثمن ضياع الكل.

البلد- ١٩٨٩

عدت إلى البلد بعد سنين عديدة فى زيارة خاطفة مع أمـــى. كانت الورش و المخازن وأشباه المصانع و المنازل تحتل جـــانبى الطريق المسمى تاريخيًا بالزراعى والذى فقد رائحته المميزة التى كانت تخدرنى عندما ينفذ عبر نافـــذة الـــسيارة عبـــق الـــزرع والأشجار مع نسمة العصارى فاشعر "بحنية" ملمس الطين.

كان الطريق بالقرب من البلد بين القـــرى المحيطـــة، يزخـــر بالعربات و الناس، ناس كثيرة كأن الأرض تطـــرحهم فى كـــل شبر ، مدخل البلد اختلف فعادة كانت تستقبلنا نخلات، أشجار كافور، و بالتحديد صفصافة ضخمة تقف وحيدة علـــى شـــط الترعة و شجرة كبيرة المسماة بأم الشعور قد تـــدلى شـــعرها يغتسل فى الماء و غيطان لا تدرك العين مداها حين تلمحها بعـــد أن تعرج العربة تاركة الطريق الأسفلتى إلي طريق ترابى ضيق.

ما رأيت الأشجار و لا النخلات، و كانت الشجرة الوحيدة قد هرمت و تساقطت فروعها و مالت حتى أوشكت أن تغـــرق فى الترعة، الغيطان انحسرت عن بيوت أسمنتية متنافرة شـــديدة

القبح، فهذا أصفر زاعق و ذاك أزرق باهت و ذلـــك رمـــادى كالح، مسخ مشوه يقوم الآن مكان القرية الجميلة.

(مسخ مشوه كل المدن و الشوارع النائية عن منطقة المطـــار والعروبة، مسار المواكب الرسميـــة و التـــشريفات وواجهـــات الفنادق ذات النجوم الخمسة و ما فوقها.

بتعبير آخر حيث يتكاثر "أبناء البط الأسود" أبناء "ال...." فى الدلتا و جنوب الوادى المعروفين خطأ "بأبناء الشعب").

انتشر فى الحقول العنب كالوباء، فـــأرض الكـــل مزروعـــة عنب... ولا أستثني منهم أحدًا (على رأى مظفر نواب الـــشاعر العراقى)

لم يعد للقطن وجود، ولا للقمح و لا لأى محـــصول آخـــر سوى العنب.

(على الرغم من عدم توافر مصانع للنبيذ أو الـــشمبانيا فى البلد!!!).

ها هو دكان البقال عامر بعلب المسلى الـــصناعى، كـــراتين البيض الأبيض و الأحمر، و صناديق السفن أب و البيبسى، و لا أنسى أكياس المعكرونة و الأرز و قفص متخم بالعيش الأبـــيض "الشامى" و "الفينو".

"يا للتقدم و الرخاء" أسررت فى نفسى.

عندما دخلنا البيت البديل ذا الطوابق الخمسة والذى أقـــاموه بعد بيعهم للدوار الكبير، كانت زوجة الابن الشابة المقيمـــة فى شقة ضيقة هى كل الدور الأول تتابع باهتمام برنـــامج للمـــرأة يصف كيفية عمل "الكوردون بلو" كانت مندمجـــة فى تـــدوين الوصفة بينما الغسالة قمدر فى الطرقة الكائنة بين المطبخ و الحمام، هبت واقفة مرحبة و مهللة و:" حاجة ساقعة بسرعة "

وبعد السلامات و المجاملات والذى منه سألت أمـــى عـــن زوجها ؟

"بيجمع العنب"

"هو الآخر" رددت بينى و بين نفسى و كدت أضحك.

لم يروقنى المكان علي الإطلاق و شعرت بـــبرودة الـــبلاط ودققت النظر، لا إنه سيراميك برتقالى فاقع يكاد يفقدك وعيك إذا نظرت له كثيرًا، أين هذا من تلك البلاطات المصرية اليدويـــة الصنع بألوانها الخضراء و الحمراء و الصفراء الهادئة تكون بتداخل أشكالها الهندسية البسيطة و الرسومات الشعبية البديعـــة لوحـــة أرضية تغلب بجمالها ورقتـــها و حيويتـــها أثمـــن الـــسجاجيد والأبسطة.

كان المكان ضيق، شقة عادية تجـــسد مثيلاتهـــا بـــالملايين فى الأحياء الشعبية أين ذلك من العز القديم: بهو الـــدوار الواســـع

والحجرات الواسعة بأبوابها الضخمة و الفنــاء الخلفــى حيــث الطيور، حظيرة المواشى العامرة، الفرن البلدى الذي تتصاعد منه روائح الطواجن و الفطير "المشلتت" و "البتاو".

و ذلك المطبخ الفسيح على الجانب الأيمن من الفناء و أنــت داخل من البوابة الخلفية الشاهقة المطلية بلون أخضر زيتى وقور و يرقد بثبات فى وسطها رأس أسد برونزى لطرق الباب، حجرة السلاحليك، المندرة والساحة الرحبة التى تحيط بهــا شــجيرات الياسمين والفل البلدى وقد مدت الآرائك والمساند تحت ضــوء القنديل و"الكلوب" الكبير فى المغربية وبداية المساء حيث نجتمع نسمع من الجد الحكايات الممتعة عن خاله زميل "ســعد باشــا زغلول" أيام كانوا يدرسون فى فرنسا، هو نفسه، "جدو "، كان يتقن الفرنسية كأمى، وعن أخواته و بنات أعمامه اللاتى تعلمن فى بدايات العشرينيات من القرن العشرين و كتبهن الفرنــسية المنسوخة بخط بديع وتعتلى الآن أرفــف مكتبتــه و مكتبتنــا، صورهن بالملابس الأنيقة و القبعات صورة طبق الأصل لبطلات "بلزاك" و ملهمات "رينوار".

وحكايات عن جده أيام "النديم" عندما قبض عليه الانجليــز و ماذا حدث للواشى الذى قاطعه الناس و لم يتمتــع بالمكافــأة المادية بعد أن ذهب عقله من معايرة الناس و نبذهم له.

وحكايات عن العائلة وأبنائها المقيمين فى المدينة و يأتون عدة مرات فى السنة فهذا الطبيب يمضى عطلتــه يعــالج الفلاحــين

الغلابة، وذلك الأستاذ المحامى الذى يقدم استشارات قانونية لأهل البلد منذ تطأ قدمه البلدة و بدون مقابل و هكذا.

مات الخال، و الخالات و لم يبق فى البلد من الأبناء إلا الإبن الأصغر والبنات أما الباقى ففى القاهرة مقصدهم و فى العراق قبلتهم و فى السعودية و الخليج، حتى فى هولندا.

فيما يخص البنات فلقد تزوجت إحداهن من طبيب عائد من الخليج. فى البداية رفض مبدأ عملها، ثم حجبها و أخيرا نقبها!

الصغرى تزوجت من مصرى مقيم فى السعودية، صحيح أنه عائليًا كان لا يناسبها لكن ميزان فلوسه عدله، غير أنها حين رفضت زواجه من أخرى،وهو، كما هو مألوف، لن يبخل ببذل النفيس و الغالى سواء كان ابنًا أو عشرة للحصول على حقوقه الشرعية و:"**اعترضى إذًا على شرع الله!!!**" و الله و الشرع من الظلم و من فراغة عين الرجال براء، فما كان منه إلا أن طلقها لتعود بأطفال تدوخ بهم السبع دوخات.

و يستمر الابن الأصغر يستعصم بما تبقى من فدادين.

"أين هذا من الدوار؟"قالت أمى متحسرة

"و الله ما شعرنا بقيمته مثل الآن، خسارة إننا بعناه"سكتت "تيتى" قليلاً و قد غلبتها الدموع:

"تعرفى؟ فلوسه راحت فى الهواء، واحد أخذها وجدد بها شقته فى مصر و واحد اشترى عربية و الثالث أشترى شقة

مصيف فى الساحل ما أدرك إيه، و كلهم تقريبًا لا يأتون إلا فى المناسبات للعزاء على الأرجح، يا الله كان زمن و راح الله يرحم الجميع"

"والأرض يا تيتى؟"

"كل سنة و إنتى طيبة"

فقدت "تيتى" بهائها و استحالت مثل الكثيرات، شبحًا متسربلاً فى عباءات كثيفة سوداء كئيبة أخفت ملامحها و بالطبع شعرها الناعم الجميل، بالكاد تعرفت عليها من صوتها و بقايا لمعة فى عينيها و غمازة واهنة بالخد عندما ابتسمت.

القاهرة ١٩٩٠

تخرجت هذا العام.

استعد لتسلم عمل " نبى" فهذا ما كنت مؤمنة به، فكونك طبيب ليست وظيفة أو مهنة إنها رسالة، رسالة نبى ينشر الإنسانية و الرحمة و يحى البشر جميعًا عندما يعمل على إحياء نفس ينقذها على طاولة الجراحة أو فى حجرة الحالات الحرجة أو وحدة الرعاية المركزة. كانت هذه هى قناعتى عندما التحقت بكلية الطب، و كان صدى صوت أستاذى "الأستاذ سليم حداد" مدرس الفيزياء بمدرسة سيدة الرسل للراهبات، يحيط بكيانى عندما تقدمت بأوراقي للكلية، و هو يقول: "إن من

ستختار منكن الطب لن تختار مهنة و عمل بل ستختار رسالة لتكون بين البشر المرضى مثل نبى يأخذ بيدهم إلى بر الأمان وتتحمل مشاق مثل أصحاب الرسالات".

انتشرت فى الآونة الأخيرة تجارة امتهنها المعدمون بدأت بالتبرع التجارى بالدم (لتصل إلى المتاجرة بالأعضاء، الكلى والكبد فى تسعينيات القرن العشرين و نستقبل بها القرن الجديد)

ملحوظة:انفجار فضيحة الدم الملوث بالإيدز فى أوروبا، يتم التحقيق و توقع الجزاءات و الإقالات وتقبل الاستقالات و توضع القوانين لمنع تكرار الخطأ، تعدل الإجراءات الطبية ويتم الاعتذار والتعويض للضحايا.

تلوث الدم بالفيروس سى و مدى انتشاره فيما بعد ليشكل خطرًا يهدد أعداد غفيرة، البلهارسيا التى لا نستطيع أن نعطى لها ظهورنا حتى لو أعطيناه للترعة.

المسئولون عن الصحة فى مصر: لا تعليق

(فقرة لن يتم استكمالها لاستمرارها وتعدد أشكالها والتنويعات المختلفة على لحنها من مقام كارثى كبير من السرطان بسبب الملوثات المسرطنة المنتشرة فى البر والبحر و الجو، إلى الفشل الكلوى، إلى الفشل الكبدى و فيروسات البى و السى القاتلة، و انتهاء بتسريح المرضى العقليين من المستشفيات أو قتلهم).

يناير ١٩٩١ معرض الكتاب

ندوة يوسف شاهين

التقيت "هالة" و "عادل السيد" و صديقنا الرابع "عادل محمد" أيضًا، لنذهب معًا لحضور ندوة "يوسف شاهين" اليوم فى معرض الكتاب، كانت مجموعتنا هذه و صداقتى لهم طوق النجاة لى من كثير من الآلام و المحن فى هذه الفترة. كنا نذرع القاهرة المعزية القديمة و نحن نستمع لشعر "عادل السيد" الذى يمس القلب برقة مسا خفيفًا كطير، كحلم أو كطيف لازوردى بهيج.

تحدث "جو" يومها عن سر عشقه لأم كلثوم، و استخدامه لأغنياتها بشكل مؤثر فى أفلامه:

"حدوتة مصرية" و "إسكندرية كمان و كمان" و سكت قليلا متأملاً ثم أضاف:

"أسمعوها ..أسمعوها كويس يا أولاد"

و تطرق الحديث إلى العراق و كانت الصالة قد سرى بها شعور بالقلق و استشعار الخطر القادم:

"أنا لا أصدق كيف نجلس الآن نتحدث ببساطة و نتناقش فى جماليات الفن و نحن نعلم ، كلنا بلا استثناء أن شعبًا عربيًا آخر سيستباح غدًا، و أن الحرب ستعلن فى الصباح على العراق،

أيًا كانت التداعيات السياسية، كيف سنواجه ذلـــك و نحتملـــه ونتقبله هكذا بكل بساطة"

"عاصفة الصحراء": أشعر الآن بطعم الانكسار، فى صبيحة الإعلان عن "العاصفة" التى ستعصف بنا جميعًا منـــذ اللحظـــة القادمة و حتى يحين تاريخ جديد يخرج من رحم الأيام المهزومة، فتنطبق أية الله تعالى: "يخرج الحى من الميت و يخرج الميت مـــن الحى"

حتى تلك اللحظة الغيبية ستبعثرنا رياحها القاسية.

"تعرف؟ لو كنت كبيرة فى ٦٧، يمكن كنـــت أكتئبـــت لدرجة الموت .. لدرجة الانتحار"

همهمت بها و أنا أتحدث مع "أدهم صليب" بينما أعطى لـــه شريط للشيخ أمام عليه أغنية "جيفارا" كان قد طلبه منى.

زلزال القاهرة ٩٢

حدث زلزال كبير هز مصر و قلبها رأســا علـــى عقـــب، بالنسبة لى كان زلزالى الأعظم هو موت أبى.

صباح الحادي عشر من فبراير ٩٢ صحوت مبكرًا لأذهـــب إلى المستشفى، أبي يجلس شاحب الوجه، يتصبب عرقًا و يتكلم بصعوبة، توجست الخطر، أسرعت أكلم استشارى القلب الذى طلب سرعة التوجه به إلى العناية الفائقـــة بمستـــشفى القـــوات المسلحة بالمعادى.

لا أعرف كيف وصلنا، لكننى دخلت معه الإنعاش، رابطة الجأش حاولت أن أبدو، أستدير ناحية النافذة كلما صعدت دمعة إلى العين أتوسل إلى الله أن ينجيه.

هناك فى البيت كانت أمى منهارة لا تقوى على استيعاب الفكرة، مجرد الفكرة.

"أنا لا أخاف الموت" همس لى و ابتسم و كرر: "أنا لا أخشاه"

أيام ثقيلة مرت ما بين الإنعاش، العيادات، معامل القسطرة القلبية و ما بين مكاتب اتحاد الإذاعة و التلفزيون حيث يعمل و وزارة الصحة، لا مناص، لابد من إجراء عملية لتغيير خمسة من شرايين القلب.

يااااه.... يا أبى أضاقت شرايين قلبك إلى هذا الحد؟ و أنت الذى وسع قلبك الدنيا و ما رحبت، الأصدقاء، الجيران، الأخوة، الأهل، الأبناء و أصدقائهم و الزوجة الحبيبة و كل من حولها من عائلة، زملاء و أصدقاء و صديقات، كل هؤلاء بمشاكلهم و همومهم، أفراحهم وأحزانهم.

"لابد من حكاية السفر للخارج يعنى؟" سألنى ثم تمتم:

"الخير فيما يختاره الله."

بعدها قرر أن يجدد الشقة بالكامل، جـاء إلينـا المهنـدس "صفوت عدلى" صاحب الشهادة فى الطاقة النووية الذى لم يجد له عمل فى طول مصر و عرضها و مع ذلك رفض الهجـرة إلى فرنسا و قبل أن يعمل و مـن الـصفر فى مهنـة المقـاولات والديكور. شرع هو و العمال فى التجديدات، كان جل وقـت أبى يقضيه مع هؤلاء العمال و الصنايعية: "بـشاى" و "مينـا" و"محمد" و "زخارى" و "عبد الحميد" و:

"الله ينور يا اسطي، تسلم يديك"

وقامت صداقة بين أبى و "صفوت"، بدأت بالمناقشة حـول الألوان التى سندهن بها الشقة و انتهت إلى ذكريات كل منـهما عن أيام الدراسة و الأدب و الفن و السياسة، و...و....

كما ذهبت معه إلى الإنعاش أول مرة ذهبت اليوم لألحق بـه فى"لندن" بعد ساعات قليلة من دخوله حجرة العمليات.

فى الطائرة جلس بجانبى شاب أفريقى يـتعلم فى "إنجلتـرا"، أعطانى ورقة يحتفظ بها للدعاء تضم كل آيات الحمد فى القرآن:

"أنتِ فى حاجة إليها أكثر منى" و تمنى لأبى الشفاء.

عندما ركبت المترو لأول مرة كنت أسأل عن المحطـة الـتى سأنزل فيها. تعرف إلى ملامحي المصرية شيخ وقور هو و زوجته، مصريان أتيا لزيارة ولدهما هنا، وصف لى بدقة كيف أصـل إلى

العنوان و نصحني عدة نصائح لأحافظ على نفسي من اللصوص في أنفاق المترو و كيف أنني لا يجب أن أتأخر في العودة مساءا، لا أتذكر الآن بالتحديد اسمه، اعتقد كان د. جرجس أو حنـا، ساعدني في إنزال حقيبتي و تمنى هو أيضًا لأبي الشفاء.

(بعد عودتي لمحت اسمه على عيادة ما بين باب الشعرية وشارع الجيش، وددت في لحظات كثيرة أن أصعد لأشكره إلا أن مشاغل الدنيا... وسفري بعد ذلك منعني، غير أنني كنت كلما مررت بالقرب من عيادته أرفع بصري لليافطة لأسلم عليه).. احتوتني أسرة مصرية مقيمة في لندن نزلت ضيفة عندهم طوال وجودي هناك عرفني عليها أستاذي الفاضل د. على خليفة، رحمه الله، رئيس قسم الكيمياء الحيوية وقتها.

ظل أبي في غيبوبة أسبوع بعد العملية، كنت أذهب إليه يوميًا قاطعة الطريق من ضاحية جنوب لندن إلى وسطها و لساني وقلبي و كل خلية في جسدي النحيل لا تتوانى عن ترديد الدعاء و التوسل إلى الله.

كنت أظل بجانبه طول اليوم أمسك بيده و أحدثه، أعلق ورقة الدعاء التي أعطاها لي رفيق السفر على رأس سريره، وأسمعه من جهاز تسجيل صغير كان معي سورة "الرحمن" بصوت الشيخ "محمد رفعت" و شريط أغاني الثورة "لعبد الحليم"، فهما كل ما اصطحبت معي من شرائط و هما أكثر شريطين قربًا إلى قلبه، فالأول يحمل تداعيات لذكريات رمضان

أحب شهور السنة إليه و الثانى بكل ما يمثل من سنوات شبابه وأحلامه الكبيرة.

كنت قد سمعت من زملاء بمركز السموم بعين شمس أن "بهاء جاهين" كان يسمع والده"الليلة الكبيرة" عندما كان يعانى من غيبوبة الموت عل إرادة الحياة فيه تستجيب.

عندما أفاق كان أنبوب التنفس يمنعه من الكلام، وجل وأرتعش من فكرة فقدانه النطق، فهو لم يكن يخشى شيئًا قدر إحساسه بالعجز و بأنه ثقيل على من حوله. احتضنته بقوة وقبلت كتفه العارى و أقسمت له أنه سليم و ما هذا إلا بفعل أنبوب التنفس و ظللت أردد هذا و أحضنه حتى استكان و هدأ.

ناداني مريض عربي يرقد فى نفس المكان:"بارك الله فيك يا ابنتى"

عاد الوعى إلى أبى اليوم اتصل بنا ابن خالتى المقيم فى هولندا وكذلك زوج شقيقة جارتنا المقيم في لندن، ليطمئنا عليه ويسألونى إذا كنت أحتاج إلى شئ.

أطلت بوهن ابتسامة على وجهه و طمأنني:"ستنجحين فى المعادلة، أنتِ و"نهاد"، صديقتى الحميمة، و ستسافران معًا إلى فرنسا كما أردت دومًا لاستكمال الدراسة"

كان يعلم مدى الإحباط و الأسى الذى أعيش فيهما.

ذهب أبي فى غيبوبة طويلة هذه المرة و لمدة ثلاثة أسابيع قادمة سأظل بجانبه أقرأ القرآن بصوت عال لا همسا حتى يسمعه، فإذا ما وصلت إلى الآية الكريمة التى تقول:"و الــذين إذا أصـــابتهم مصيبة قالوا إنا لله و...." ليختنق صوتى لأول مرة بالبكـــاء و أجهش به، انظر إلى وجه أبي فأرى ملامحه مشفقة على، رغـــم الغيبوبة و تصديقًا لحدسي عندما كنت أخبر الأطباء أنه يشعر بى و يستجيب إلى.

(ستبقي هذه الدموع هى لحظة الانهيار الظاهرى الوحيدة و لعدة سنوات قادمة إلى أن استسلمت عاطفيًا لفكرة وفاته)

أفيق على صوت بكاء خافت بجانبى فلت صوته رغما عـــن صاحبته، فما تكون إلا الممرضة الإنجليزية، التى تسألنى ماذا اقرأ؟ و كيف إنني الوحيدة من أقارب المرضى التى تراها يوميًا و منـــذ شهر كامل فعادة لا يأتى لزيارة المرضى الإنجليـــز إلا المحـــامون لتخليص أوراق الوصية و ما إلى ذلك، هكذا قالت و هى تمسح عينيها.

فى المساء عندما كان "هشام"، الطفل الأصغر للعائلة الكريمة معى: الدكتور "حافظ أحمد" و زوجته الرائعة السيدة "مـــنى"، يجرى ليرتمى فى حضن أبيه، أيقنت لحظتها أن أبى، أبويا أنا، لابد

ميت غدًا و أنني لن أراه بعد الغد و سيكبر حزني عامًا بعد عـــام في كل مرة احتاج له فيها و لا أجده.

في الصباح كان وجهه مضيئًا مستديرًا كالبدر، زالت كـــل آثار الشحوب و المرض، ما بين ليلة و صباح عاد وجهه يطفـــر بالصحة و النعومة كطفل ولد لتوه، مبتسمًا هادئًا، حـــضنته و قبلته ما بين عينيه و على الوجنتين و اليدين، في نفس اللحظـــة اتصلت أمي كانت لا تستطيع أن تحادثني من شدة تأثرها و اليوم تغلبت على انهيارها و طلبت مني أن أسلم عليه، طمأنتها و لمـــا أعطت السماعة لصديق والدي ليطمئن هو الآخر عليه، قلت له بهدوء شديد:"**ادعوا لأبي فهو الآن يحتضر**"

و ما هي إلا ساعات حتى كان رسم القلب يدفع بمنخفضات و مرتفعات بطيئة غير منتظمة تنفرج رويدًا رويدًا لتتحـــول إلى خط مستقيم ثابت تعلو معه صفارات إنذار الأجهزة، كنت قد فرغت لتوي من الصلاة و قراءة سورة "الواقعـــة" و "الـــرحمن" و"يس" و "المؤمنون" و تشهدت في أذنه بعد أن رفعت الـــسبابة وهمست له: " **مع السلامة... هتوحشني**"

عدت إلى القاهرة جالسة على كرسي في منتصف طائرة "أير باص" بينما يرقد جسد والدي في صندوق خشبي.

في المطار كان في انتظاري: أخي، خـــالي، عمـــي، أبنـــاء أعمامي، صديقاتي وأصدقائي، أصدقاء أبي و جارنـــا الـــشهم

العميد "شوقى النجار"، احتضنتنى الصديقات "حنان" و "داليا"، "نهاد" و "أميرة" بينما حمل عنى الحقيبة "عادل محمد" الـــصديق الرقيق.

كان باب الشقة الممتلئة عن آخرها مفتوحًا و كذلك بـــاب شقة جيراننا بينما جلس الكثيرون فى الطرقة و علـــى الـــسلالم حيث لمحت "محمد" و "مينا" و "زخارى" العمال الذين جـــددوا شقتنا، و بالداخل كان أصدقاء أبى الواجمون من هول الـــصدمة وزميلاته فى العمل، بنات أعمامى، صديقات أمى، أحمـــد ابـــن خالة أمى، أقاربنا من طنطا، إسكندرية، ومن المحلة و البلد، كثير من الجيران من أهل الشارع، حتى هؤلاء الذين نعرفهم بالكـــاد وكان أبى يركن عربته أمام عمارتهم، المعلم "وحيـــه" و أخـــوه المعلم "ويصا"، "صفوت عدلى"، "أنطـــوان" زميـــل الدراســـة والصديق العزيز الذى كان يجلس، و لـــثلاث أيـــام متتاليـــة، بالساعات صامتًا فقط يستمع معنا إلى تلاوة القـــرآن، "وائـــل مختار" الصديق الحميم لأخى و أبيه و أمه السيدة "روز"، "صفاء ميخائيل" زميلتى و جارتى و أمها السيدة "الجدعة" التى وقفـــت بجانبنا عند تعرضنا لمحنة عائليـــة، "فيفيـــان و ســـوزان نخلـــة" صاحبات الطفولة و كانت "سوزان" منـــهارة تبكـــى بـــشدة وتعجبت كيف تبكيه هكذا و هى لن تفتقده مثلى.

ما كل هذا الدفء؟ ما كل هذا العمق و الصدق في المشاعر؟ كانت أيام العزاء مجللة بحزن يشيع منه الحب.

الآن و الآن فقط وبعد مرور هذه السنوات على موته أستطيع أن أقرن اختفاء أبي من الحياة باختفاء كل ما كان يجسده وجوده من معنى لفكر و نمط حياة لمجتمع اختفى هو الآخر للأبد.

مواويل الغربة: الأولة فى الغربة باريس: شتاء ١٩٩٣

الساعة تقترب من الخامسة، خارج النافذة بدت الشوارع البيضاء الباهتة خالية من البشر، المشهد صامت، تساقط الثلوج على أسطح المنازل هو الرمز الحركى الوحيد للحياة، أدير المذياع على المحطة العربية تأتيني موسيقى ركيكة على خلفية أصوات نسائية خليعة بينما يصدح صوت "عدويه" معلنا أن:" ستو..... بسبستلو.... بسبوسة......" تمايلت مع الإيقاع قليلاً وانفجرت ضاحكة فلا الكلمات لها معنى و لا أجد تفسير لحماس المغنى الذى أشك كثيرًا فى مدي وعيه أثناء ترديد هذا الهزل. قطع صوت المذيع الهراء السمعى معلنا بداية فقرة جديدة، انساب صوت "عبد الوهاب" ساحرًا:" **و كل ده و أنت مش دارى يا نسيني و أنا جنبك"**

قفز إلى ذاكرتي وجه "الريحانى" المحب المعتصر ألما، سرت قشعريرة فى جسدى حملتني الكلمات للزمن الجميل و...

أجهشت بالبكاء، بكيت غربتى : غربة المكـــان و الزمان،فأمـــا غربة المكان طالت أم قصرت مصيرها العودة فماذا أفعل أمـــام غربتى فى الزمن الردئ، فأنا ممن ينتسبون إلى: (آخـــر الأجيـــال المحترمين) إن جاز التعبير.

باريس ـــ ديسمبر ١٩٩٤

اليوم أقوم بالمناوبة الليلية، منذ أسابيع عدة لم أرَ الـــشمس، فصباحًا أصل إلى المستشفى مع ضوء باهـــت رمـــادى للنـــهار وأعود للمترل و قد خيم الليل و سطعت أضواء الأعياد فى محاولة لبعث دفء الحياة و بديلاً عن بهجة الشمس، وإن كانت لا تغنى عن الشوق إليها.

لم يكن اليوم هادئًا، ككل الأيام ما أن تبـــدأ الممرضـــات فى استدعائى ليستمر جرس جهاز الاستدعاء، الذى أحمله، فى العمل حتى الصباح.

"مريض الغرفة ٢١٠ يعانى من اشتباه فى أزمة قلبية"

أهرول على السلم و دقات قلبى تعلو (حتى أكاد أصاب أنـــا نفسى بأزمة قلبية)، مارة على حجرة التمريض ساحبة ورائـــي جهاز رسم القلب تعدو الممرضة خلفى بينما أملى عليها قائمـــة الأدوية وعينات التحاليل اللازمة، أدفع باب الغرفة، المريض يرقد فى استسلام يمسك بصدره، أطمئنه بكلمات ودودة بينما أقـــوم

بعمل رسم القلب، و قياس الضغط و مراجعة تاريخه المرضـــى، أطلب من الممرضة الاستعلام عن إمكانية نقله إلى العناية المركزة إذا استدعى الأمر، الضغط مرتفع قليلاً، رسم القلـــب ســـليم، وكذلك التحاليل، لا توجد إذن أية علامات للخطر. يتحـــسن المريض و يزول الألم سريعًا تحت تأثير الدواء.

"اذهبى أنتِ، سأظل هنا بعض الوقت"

أقول للممرضة التى تنصرف بعد أن تتأكد من حسن وضع المريض على الفراش.

أسحب كرسيًا و أجلس بجانبه بعد دقائق يلتفـــت نحـــوى مبتسمًا متسائلاً:

"كم عمرك؟"

" ٢٩"

"أنا لى ضعف عمرك منذ عشر سنوات" و يضحك ثم يهمس

" ظننت أنه القلب الذى سيودى بحياتى؟ لا لقد فعلها مـــن قبل كثيرًا و لم يهزمنى حتى الآن"

" أرى أنك اجتزت عملية لتغيير الشرايين و هذا ما استدعى قلقى"

"نعم، منذ عدة سنوات يمكن عشرة؟ يومها مررت بتجربـــة الموت" و صمت

" أعتقد أن الموت لن يفرق كثيرًا عن ذلك الإحساس، إنـــه الانسحاب السريع نحو بئر غير مرئية عميقة مظلمة و الـــشعور بأنك تنفصل عن جسدك رغم انك تشعر أن هذا الجسد لك إلا انك تشعر أيضًا أنه ليس لك تمامًا و أن هناك مـــسافة رهيبـــة تفصلك عنه، بعدها شعرت بخيوط حريرية تمتد إلى و تشدني من هذه البئر ثم اقترب النور شيئًا فشيئًا و سمعت أصواتًا ملائكيـــة تناديني، لم تكن سوى أصوات الممرضـــات بالعنايـــة الفائقـــة وأيديهن هي تلك الخيوط الحريرية التي أعادتني للحياة.

يا عزيزتي الصغيرة... ما اسمك؟"

" إيمان"

"اسم غريب، من أي بلد؟ دعيني أخمن...يونانية؟

" لا، مصرية"

"أنا إسرائيلي"

لوهلة ارتبكت أحاسيسي، لم تكن المرة الأولى التي أتعامـــل فيها مع يهود فكثير منهم زملاء و الأكثر أساتذة في هذا المعهـــد العتيد، لم يلفت نظري من قبل تصنيف البشر علـــى حـــسب معتقداتهم، إلا إن هذه كانت المرة الأولى التي أرى فيها إسرائيلي وجهًا لوجه و أتعامل معه عن قرب، أصغى إليه يـــتكلم عـــن أحاسيسه و.... ألمسه!

لثوان عصفت بي مشاعر متناقضة من الدهـــشة، الغـــضب، الخوف و القلق و خصوصًا من تلك البساطة الـــتي نطـــق بهـــا الكلمة. فكرت في الانصراف، إلا أنني ظللت في مكاني. نظر إليّ مليًا، لعله أحس بما أشعر به، استكمل حديثه

"لكنك لا تشبهين المصريين"

"و كيف يشبهون؟"

"إنهم سمر، يشبهون سكان المارتينيك، أي خليط من الأفارقة و الأوروبيين"

"يعني، و لكنك أنت نفسك تشبه كثيرًا من المصريين الـــذين أعرفهم و أراهم في شوارع القاهرة"

"يمكن!"

كان الرجل يعاني من سرطان الرئة، تأملته قليلاً إنه فعلا يشبه الكثيرين في القاهرة بشعره الأبيض وجهه المتغضن عيناه السوداء الغائرة، و أنفه الغليظ نوعا ما.

تأملت المفارقة أنا الطبيبة و مريضي الراقد أمامي الذي منـــذ دقائق قليلة كنت أفحصه و أداويه و كنت سأبذل كل جهـــدي لأنقذه إذا ما كانت حياته في خطر، ماذا في هذا المـــشهد مـــن غرابة ؟ لا شيئ....

إلا أن ما بين تاريخينا عداوة و ثأر ودماء أعزاء فقدهم كــل منا، قلت لنفسي:

" ثم أنه في النهاية رجل على مشارف الموت لا حول له و لا قوة، كيف لي أن أحمل الموقف كل هذه الأبعاد، إنه في النهايــة مريض و أنا طبيب المناوبة الليلية و لا شئ أكثر من هذا"

"أنت هنا وحدك؟ أقصد لماذا تعالج في فرنسا؟"

"أنا أعيش هنا منذ أكثر من عشرين عامًا فبعد موت زوجتي و هجرة ولدي الوحيد إلى أمريكا بعد حرب يوم كيبور جئــت لأعيش مع أختي و بناهما"

""لقبك جرينسكي، ليس فرنسيًا على ما اعتقد؟"

"أنا بولندي المولد و النشأة"

"......................"

سؤال لم أطرحه و إن كان بدا واضحًا في عيني، فهمه على الفور و غير مجرى الحديث:

"ما هي الأشياء التي تشكرين عليها الرب؟

بادرني بالسؤال ليقطع شرودي

"كل شئ"

"لا أقصد بشكل عام بل أكثرها إلحاحًا و أهمية"، و أكمــل الإجابة بدلاً مني دون أن ينتظرها:

" إنه الخبز الذي تستطيعين أن تأكليه و الملابس التي تستطيعين أن تضعيها و الماء الذى يمكنك أن تشربيه و هكذا، هذه حكمة سمعتها من نادل عجوز قالها لى و أنا فى مثل عمرك، لا يغنى الامتلاك عن القدرة على التمتع بالأشياء حتى تلك البسيطة ، حكمة يدركها المرضى و العجائز و قد جمعت بين الصفتين"

أضفت:

"و من عانوا من الحرب"

نظرت إليه ثم هممت بالوقوف بعد أن ارتفع صوت جهاز الاستدعاء

"يبدو أنك لن تنامى الليلة يا عزيزتى"

" أنا عادة لا أنام مطلقًا أثناء المناوبة الليلية"

ابتسمت، عند باب الغرفة و قبل أن أخرج استدرت وقلت له بصدق:

" أنت الآن بخير لكن لا تتردد فى طلبى إذا ما شعرت بأدنى ألم"

عندما خرجت من الغرفة كان السؤال لازال يحيرنى وتساءلت:

" لماذا .....؟؟"

"إلى قاتلٍ آخر: لو تَرَكْتَ الجنينَ ثلاثين يومًا،
إذَن لتغيَّرت الاحتمالاتُ :
قد ينتهى الاحتلالُ ولا يتذكَّرُ ذاك الرضيعُ زمانَ الحصار،
فيكبر طفلاً معافى،
ويدرُسُ فى معهدٍ واحد مع إحدى بناتكَ
تاريخَ آسيا القديمَ .
وقد يقعان معًا فى شباك الغرام .
وقد يُنْجبان ابنةً (وتكونُ يهوديَّةً بالولادةِ.)
ماذا فَعَلْتَ إذًا ؟
صارت ابنتُكَ الآن أرملةً،
والحفيدةُ صارت يتيمةْ ؟
فماذا فَعَلْتَ بأُسرتكَ الشاردةْ
وكيف أَصَبْتَ ثلاثَ حمائمَ بالطلقة الواحدةْ ؟"

محمود درويش

الثانية فى الغربة هدى أنطون ١٩٩٥

عندما غادرت إلى الأبد شبرا و استقلت الطائرة مع زوجها الفرنسى متجهة إلى مدينة "تولوز" حيث ستعيش ما تبقي من عمرها، كانت تعتقد أن رفض الأب و معارضته للزواج نابع من

غيرة الأباء المعتادة، كبر سن زوجها بأكثر من خمسة عشر عامًا عن عمرها الساعى فى بدايات العشرين، أو لمجرد عدم الاعتيـــاد على فكرة زواج الابنة من "الخواجة" صاحب العيــون الزرقـــاء الكاثوليكى اسمًا الغير ممارس لأى من الطقوس و الشعائر الدينية و الذى لا يستطيع التفاهم معه لأنه لا يتحــدث العربيـــة، و لا يعرف مواعيد الأعياد و الصيام أو الموالد و لا أسماء الأديـــرة و القديسين، لا يجيد لعب الطاولة كزوج أختـــها الكـــبرى، و لم يستسغ أكل "أم هدى" عندما زارهم ليطلب يـــدها، أكـــل "أم هدى" الذي أوقعه هو شخصيًا من خمسة و عـــشرين عامـــا فى هواها. كما إنه لا يشجع "الأهلى"، الذى لا يعرفه أصلاً، مثلما يفعل هو و ابنه (أبوها و أخوها).

هكذا بسط لها خيالها الأشياء، و صممت و لم تأبه للرفض، حتى أنها قبلت بالشرط ألا تعود إلى هذا البيت إذا خرجت منه. و أغمضت عينيها و هى تؤكد لنفسها أن كل شئ سيهدأ عندما تستقر وتبعث إليهم بدعوة لزيارتها فى بلـــد النـــور والإخـــاء والحرية و المساواة، ساعتها سينصلح كل شئ:

"شبرا إيه بس يا بابا!! أنا فى طريقى الآن إلى فرنسا"

قابلتها "نهاد" بعدها بأكثر من عشرين عامًـــا علـــى مقعـــد الطائرة المجاور فى رحلتها من القاهرة إلى باريس. كانت متشحة بالسواد و تضع نظارة داكنة تحجب عينين دامعتين بالتأكيد، غير

أنها عندما وضعت النظارة جانبا اكتشفت أنها كانت تخفى أيضًا عينين منكسرتين.

نشأت صداقة من نوع نادر بين "نهاد" و "هدى" تجمعهما الغربة و الوحدة و الأصول الواحدة و الذكريات المشتركة.

أنجبت هدى ابنة وحيدة غادرت منزل الأهل و هى في السابعة عشرة لتلتحق بالجامعة و تقيم بعيدًا مع صديق لها في ضاحية جنوبي العاصمة، و غادر الزوج بعدها بقليل المنزل هو أيضًا ليقيم مع صديق فشل في البعد عنه طوال سنوات الزواج وكان مصدر لجحيم مستمر عاشته هدى طيلة العشرين عامًا الماضية.

أهدت كلا منهما للأخرى الدفء الغائب عن حياتيهما، تلتقيان أحيانًا بعد العمل للتسوق، أو شرب فنجان قهوة على مقهى لتدندنان معا أغنية "لعبد المطلب" الذى تعشقه هدى أو الانغماس في الاستمتاع بطبق "فول" في أحد مطاعم المصريين بالحى اللاتينى بباريس عندما تقضيان كل فترة أجازة نهاية الأسبوع بها.

كثيرًا ما تتصل كل منهما بالأخرى في المساء لتحكى عما حدث في نهارها، و كأن الكلام الذى تنطقان به، على كثرته،لا يشبع لديهما الرغبة في الحديث بصوتهما الحقيقى عندما تتبادلان المزاح باللهجة المصرية.

فى يوم مطير عاصف و كان قد مضى على "نهاد" عدة ليـــال فى المناوبة الليلية للطوارئ عندما تصير كابوسًا حقيقيًا مجسدًا فى آلام البشر و معاناة ساعات الاحتضار حيث يختلط الحزن الخاص بالطبيب المعالج بحزن المريض المتسرب من بين الأيدى المحاولـــة يأسًا إنقاذه.

فى الصباح بعد ليلة كهذه اعترها رغبـــة قويـــة فى البكـــاء ووجدت نفسها تستقل الحافلة إلى مترل "هدى"، كـــان يـــوم السبت و الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا و الشمس قـــد عادت لتسطع و لا يتبقى فى الجو غير رائحـــة المطـــر و أوراق الشجر المتطايرة.

تفتح لها "هدى" الباب و ترجو منها الجلوس حتى تنهى ما فى يديها فى المطبخ. الستائر البيضاء ترقص بنعومة بفعل الهواء النافذ عبر زجاج الشرفة المفتوحة، الضوء النهارى يغمر الغرفة و عندما هبت رائحة الطعام أدركت أن "هدى" تعد لها طبقها المفضل " الفلفل والكوسة المحشوة" تذكرت والدها و البيت يوم الجمعـــة قبل الغداء و هى تشاهد فيلم "لفريد الأطرش وسامية جمال" أو "لعبد الحليم و شادية" ، " سعاد حسنى وحسن يوسف".

جاءها صوت "هدى" يقترح :"عندك فى المكتبة شريط لفيلم "اسماعيل ياسين فى الأسطول"

فبكت كما لم تبك من قبل و جاءت "هدى" مفزوعة من المطبخ، لتحتضنها و ..... بعد الغداء جلست "نهاد" على الأريكة صامتة و قد هدأت و فرغت من أداء صلاة العصر، وهما تتناولان القهوة همست "هدى" :

"الآن عرفت لماذا كان يعارض، و لماذا لم يسامحني حتى مماته، كان يعلم ما لم أدركه وقتها و بعد أن تعذبت، لقد كان كل ما في زوجي مختلف عني، ذوقه، طعامه، خلفيته الثقافية والعائلية، ذاكرته، مبادئه، مفهوم المسؤولية بالنسبة له، كل شئ، يكفي إنني ظللت عشرين عامًا لا أتكلم معه إلا بلغة أخرى غير لغتي وكان على أن أشرح له ما أعنيه إذا ما مازحته أو علقت تعليق مصرى ساخن، ساخر على موقف ما، حتى ارتباطه بالدين والكنيسة لم يكن مثل ما تربيت عليه. ليتني ما خرجت من شارعنا ".. كانت تفاصيل هذه الصداقة هي ما يجعل "نهاد" و"هدى" بالنسبة لى رمزًا متجددًا و حيًا و ثابتًا على ما يمكن أن تعطيه الذاكرة و المشاعر الإنسانية المبنية على خلفية وجدانية واحدة، من احتواء و مساندة تلغى الاختلاف و لا تتوقف عنده طالما ما يجمع أكثر بكثير جدًا مما يفرق.

باريس – ١٩٩٥

يوم آخر أقوم فيه بالمناوبة الليلية، في هذه الليلة قرب الساعة الرابعة صباحًا يوقظني جهاز الاستدعاء من إغفاءة قصيرة فرضها التعب قسرًا تعبيرًا عن احتجاج الجسد المنهك.

"السيد/ دوبوا" فقد توازنه و ارتطمت رأسه بشدة على الأرض"

ما وراء الكلمات يعنى أن احتمالات نزيف فى المخ واردة هى الأخرى"بشدة" لمريضنا العجوز الذى يعالج بالقسم منذ عدة أسابيع من لوكيميا حادة و نقص صفائحه الدموية بلغ اليوم أدنى معدلاته، إذن هى ليلة ليلاء.

بعد الكشف الدقيق على المريض و ترتيبات لنقل الصفائح، عمل أشعة مقطعية طارئة على المخ مع استدعاء طبيب الأعصاب يتم نقل مريضنا إلى الرعاية الفائقة، تنتهى مهمتى.

انظر فى الساعة تشير إلى السادسة صباحًا، أقوم بالاطمئنان على مريضى، التقى بزميلى "رفائيل" طبيب الرعاية الفائقة المناوب، فى ردهة القسم يقترح على فنجان قهوة بما أن الوقت يقترب من بدء يوم عمل جديد. فى مكتب الأطباء ذى الواجهة الزجاجية الكاشفة لصالة الرعاية حيث تصطف أمامنا أسرة المرضى، جلسنا نشرب فنجانى القهوة و نتكلم، كانت الشمس تشرق و السماء تتلون بدرجات الأحمر تنفذ من خلال السحب الرمادية و يزحف الأزرق المضئ شيئًا فشيئًا من النافذة الكبيرة المواجهة و التى تكون الضلع الرابع للمكتب. تحدثنا عن أسرتينا، طفلى الذى يبلغ من العمر الآن عامه الثانى، كيف أجد مشاعر

الأمومة، حدثته أيضًا عن زوجي و ما فعله داعمًا وجودى هنـــا عندما أتى ليقيم معى عند بلوغ طفلنا شهره السابع مضحيًا بسنة من عمله و خبرته حين هدد استمرار دراستى دورى كأم.

" ننتظر مولودنا الأول بعد شهرين" يقول، ثم يتساءل " مـــا هو شعور الأب يا ترى؟ لابد أن زوجك قد مر بتجربة فريـــدة مع طفلكما، أعتقد أننى سأجد متعة كبيرة عندما أقوم برعايـــة طفلنا مع زوجتى و هو فى هذه السن الصغيرة، ســـتكون متعـــة عظيمة ما من شك"

بعد أربعة أشهر يلمحنى عند محطة الحافلات استعد للعـــودة إلى المترل، يترل من عربته مسرعًا الخطى نحوى:

"كيف حال زوجتك؟" أسأله

"رائعة، و الطفل رائع، لا أستطيع وصف سعادتنا به"

نتبادل بضع جمل عن الدراسة و مكان العمل فى الستة شهور المقبلة و أى الأقسام أفيد لى، فهذا هو الأسبوع الأخير لعملى فى هذا المستشفى و سأنتقل لآخر، لا ينسى أن ينـــصحنى بـــشراء بعض الكتب المهمة، و يسألنى إن كنت حضرت عرض مسرحية "كاليجولا" "للكوميدي فرانسيز" إخـــراج المـــصرى بلـــدياتى "يوسف شاهين"

" تحياتى لأسرتك"

نتصافح و يمضى كل منا فى طريقه.

كان "رفائيل" من الشخصيات الودودة التى قابلتــها، عنــد الاحتفال"بسبوع" طفله اجتمعت فى منزله مع الكثير من الأطباء: فرنسيين،جزائريين، أفارقة، و مواطنى الكتلة الشيوعية المنهارة.

كان الاحتفال باليوم السابع للميلاد طقسًا يهوديًا خالصًا.

باريس – ١٩٩٦ جنون البقر

لم يكن لنا حديث منذ عدة أسابيع إلا عن "جنــون البقــر" وكيف سيؤثر هذا على اقتصاديات كثير من الدول الأوروبيــة، إلى أن تسرب خبر تورط بلدان غربية وسيطة لتصدير اللحــوم المصابة أو على الأقل المشكوك فى أمرها إلى الــدول الأفريقيــة والعالم الثالث، و الذى ننتمى إليه بلا فخر، كانــت مفاجــأة بالنسبة لى و أنا أسمع تعليق" ألان" الزميل الفرنسى:

"و ماذا فى ذلك؟!"

"ماذا فيه؟ إنها جريمة، كيف يمكن للضمير أن يسمح بها، أن تستغل حاجة الفقراء و تبعث إليهم بطعام يحمل مــرض يبــدو غامضًا و خطيرًا حتى الآن"

"ألا تعرفين أن حكوماتهم المحلية هى المذنب الأول فى ذلــك، فهم الذين يسعون إلي عقد مثل تلــك الــصفقات المــشبوهة، والشركات العالمية لا تجد حرجًا طالما يصب فى مصلحتها، كل

يبحث عن مصلحته: الشركات وحكومات جنوب المتوسط، الأولى أن تنتقدى من يسمحون بذلك هناك و ليس هنا"

"و أنت كإنسان أيرضيك أن تعطى لشخص طعام قد يؤدى به إلى الموت"

ابتسم بخبث و قال:

"على الأقل سيموت و هو لأول مرة شبعان"

الثالثة فى الغربة باريس شتاء ١٩٩٧

قال لى فادى نصر زميلي اللبنانى، و كنا عشية عيد الميلاد، وقد خلا المستشفى الكبير أو كاد من الأطباء الفرنسيين المحتفلين الآن فى بيوتهم أمام المدفأة وحول الموائد الأسرية و فى الساحات أمام الكنائس الكبرى، وقد بقينا وحدنا، أنا و فادى وسعاد المغربية طبيبة المعمل و محمد التونسى طبيب الاستقبال حول المائدة فى أستراحة الأطباء المناوبين فى ذلك المستشفى الذى جمعنا عربًا مغتربين، و بشرًا تلفهم نفس الأوجاع و المعاناة من العنصرية الأوروبية المتعالية و لفظ الأوطان لأحلامنا البسيطة وطموحنا المشروع.

قال بصوت خفيض و كأنه يحادث نفسه: "أنت لا تعرفين كم هى قاسية الحرب الأهلية"

كنت أحدثه عن مخاوفي التي أثارتها رواية (بيروت بيروت) لصنع الله إبراهيم

"لقد ارتكبت أنا نفسي فظائع لا أستطيع أن أغفرها أو أنساها، تؤلمني كلما طفت إلى الوعي، لقد انجرفت إلى هوة الحقد و الغضب و نسيت أشياء كثيرة تعلمتها من والدى، نسيت و تخليت عن الكثير من إنسانيتي"

صمت و نظر إلى الفراغ: " أنت لا تعرفين ما هي الحرب....، إنها سلسلة من التنازلات عن كونك آدمية سواء مهاجمة أو ضحية فكلانا يفقد إنسانيته، نتحول إلى وحوش ضارية تنهش لحم بعضها ونتفوق على وحشيتهم و ننهش أعراض بعضنا"

كانت كلماته من فرط صدقها و رغم بشاعتها تجعلني أتعاطف و أدرك أيضًا أننا لسنا معصومين من الزلل إلى حضيض الهمجية إذا ما نبتت بذور التعصب، فلقد كان فادى هو هو نفس الشخص الجالس أمامى يبكى من غير دموع انزلاقه إلى الكثير من الأفعال الغير إنسانية أثناء الحرب فى بيروت، هو نفسه من أراه يوميًا يساعد بكل جدية، رقة و إخلاص غير متصنع المرضى و الزملاء العرب و من جنسيات مختلفة دون تفرقة ودون الالتفات إلى ما يعتقدونه.

فلقد كانت له معى أنا المصرية المسلمة الكثير من مواقــف الشهامة (و الجدعنة).

" أعلم أن القصة بها الكثير من تفاصيل الحرب المرعبة لكـــن مهما قرأت لن تحسى ما أقوله، هل تعلمى أنه فى إحدى الليـــالى التى غاب عنها القمر، ساعدت القوات الإســـرائيلية بـــرادراهم ميليشيات الكتائب فى الهجوم على إحدى القرى من أطـــراف الصراع، و كانت مجزرة بتخطـــيط و مـــساندة الإســـرائيليين، " وأطرق و همهم "فليغفر لى الله"

كان وقع الفضفضة التى أخذت شكل الاعتراف ثقيلاً علـــى نفسه

"هل تعلمى أنه بعد عدة أسابيع لا أذكر.... قـــام الجـــيش الإسرائيلى بمساندة أفراد تلك القرية الناجين لمهاجمتنا و الانتقام منا بنفس الطريقة و فى نفس التوقيت أيضًا حين غاب القمـــر، وكان انتقامًا رهيبًا، أدرك تمامًا مشاعرهم فما قمنا به كان أيضًا بشعًا، عندها فقط فهمت و سعيت بكل قوتى للهرب من هذا المستنقع"

و عندما لم استطع إخفاء هلعى من كلماته استطرد:

" و الآن هل عرفتى ما هى الحرب التى تقوم بين أبناء الوطن الواحد؟"

باريس ١٩٩٧

لمحت مدام "صوفى" و زوجها الأستاذ"مشرقى" واقفين عند نهاية الممر المؤدى إلى القسم.

"خير يا أستاذ "مشرقى"

"و الله لا أدرى إذا كان خيرًا؟ نتائج التحاليل الأخيرة غير مشجعة"

كان أحد المرضى المصريين الذين يعالجون فى القسم حيث أعمل، و اليوم موعد الكشف الدورى بعد انتهاء العلاج الكيميائى.

وجود مصرى معك يؤنس الغربة ويحيى فى قلبك كل الحوارات الدافئة التى لا تستطيع إقامتها مع غيره، الكلام والتفكير بلغة غير لغة مولدك و إن أجدتها بطلاقة، يغير شئ ما عميق فى وجدانك يجعلك ترى نفسك شخصين، أحدهما يتكلم و الآخر يستمع و التحرر منها يطلق مشاعرك، على الأقل كان هذا هو إحساسى.

بعد إجراءات الدخول نادتنى زوجته التى لحقت بى بعد أن تجاوزت غرفته بقليل، تستعلم عن حالته التى تدهورت مؤخرًا. تعلم الحقيقة، كلتانا، أنا بحكم العمل و هى بحكم القلب.

"ألم تذهبى قبلا إلى الكنيسة المصرية؟ إنها قريبة جدًا من المستشفى تبعد محطة واحدة فقط بالمترو" أدمجت هذه العبارة فى

حوارى. لم تزد فى أسئلتها كثيرًا، فهمـــت الإشـــارة و قـــرب الموعد.

تركتها و أنا أدعى أن هناك من ينتظرنى حتى لا أفصح بشكل مباشر عما سيؤلمها.

فى عطلة نهاية الأسبوع، اصطحبت باقة ورد يغلـــب عليهـــا اللون الأبيض و كثير من الأخضر و بطاقـــة عليهـــا كلمـــتين: "تمنياتى بالسعادة" لم أجرؤ على تمنى الشفاء الذى أيقنت منذ أيام استحالته.

ذهبت إليه، ليس كطبيبة و لكن كواحدة من أبناء جلدتـــه لإلقاء التحية و "الونس". أعرف تمامًا ما يعانيه الغريب و المريض معًا من سابق خبرة المعاناة ذاتها.

تحدثنا عن الجو العاصف أمس و الثلوج الكثيفة التى تغطـــى المدينة و عدم رؤيتنا الشمس.

قلت له إن أجمل أغنية سمعتها على الإطلاق تجعل حنينى إلى البلد يفوق كل احتمال هى أغنية "لعلى إسماعيل"، و هو تحديدًا، "حلاوة شمسنا". تذكرنا "فؤاد المهندس"، و "الأستاذ حمام" و هو يجادل "سليمان بك نجيب"، لسوء حظه العاثر دائمًا، على أنـــه الجناينى و ليس الباشا، ضحكنا. و............

بعد يومين تصافحت أنا و مدام "صـــوف" للـــوداع، فمـــن الحكمة عودته الآن واقفا على قدميه.

"أنا صعدت إلى التاسع اليوم، لأطمئن عليه قبل أن نغـــادر، لكنني لم أجده، قالوا إنه فى جلسة الإشعاع، أرجـــو أن تبلغيـــه سلامى و تمنياتى بالشفاء"

"إسلام" طفل مصرى، كان يعالج فى الدور التاســـع حيـــث قسم الأطفال، و كانت هى تمر عليه كل صباح لتـــسأل عـــن أحواله.

ساحل العاج ١٩٩٨ :حكاية مباراة مصر و تونس:

كان زميل العمل "ماجد مـــوريس" لـــه موهبـــة فى إلقـــاء الحكايات خفيفة الظل، وكنت أنصحه دائمًا بالشروع فى تدوين كتاب:

"طرائف ابن موريس بين باب الشعرية و باريس" نظرًا لمـــا يلقاه من مواقف مضحكة فى رحلات عمله و فى حياته عمومًا.

فى معرض حديثه عن أكثر المواقف، التى ألمت بـــه، طرافـــة، وكنا فى مهمة عمل خارج البلاد، حكى لى مـــا حـــدث لـــه ولصديقه "الدكتور أحمد" عندما ذهبوا لتشجيع فريقنا القومى فى مباراته أمام تونس:

"كانت الأعصاب مشدودة و الجماهير تصيح، تغنى و تشجع بكل حماس، كنا نجلس فى صفوف الدرجة الثالثـــة، لا يمكـــن مقارنة أى متعة بتلك و أنت تشاهد مباراة فى صفوف الدرجـــة

الثالثة، حدث أن الجالس أمامنا كان ضخمًا و يتحرك كثيرًا فلا يتركنا نرى الكرة، كان يقوم و يقعد و يتشاجر مع من حولــه، يعلق بصوت أجش على المباراة و لا "محمد لطيــف" فى زمانــه المهم شكله كان من المشاغبين، و نحن الاثنين، أنا و "أحمــد"، ظاهر علينا أننا أفندية أولاد ناس، لم يستحب لطلبنـــا المهــذب بالكف قليلاً عن الحركة، أعيتنا الحيل و ضاق صبرنا فما كـــان من "أحمد" إلا أن قام واقفًا و استدار ناحية الجمــاهير الغفــيرة قائلا: **"الشخص ده يا جماعة بيشجع تونس"**

و كنا ساعتها مغلوبين واحد صفر أو متعــادلين لا اذكــر تحديدًا، اعتبروها خيانة عظمى، طبعا كيف يجرؤ أيًا من كــان على تشجيع فريق منافس أمام الفريق القومى المصرى؟

"و عينك ما تشوف إلا النور، هجم عليه من هجم و ضربه من ضرب و لا التتار و فى ثواني راح فى "الوبا" مثل "هنــادى"، أخرجوه من المدرج كله"

ضحكت و قلت: "يا عينى على الوطنية"

العودة يناير ٢٠٠٠

عندما اطلعت على صحافة الصباح فى ذلك اليوم من شـــهر يناير الذى حمل خبر وفاة الفريق عزيز غالى، اسرعت أطلــب خالى، وجدته متأثرًا، كان المرض قد نال منه، وأصـــبح ســـهل البكاء خاصة عندما يعلم برحيل صديق أو قريب، حدثته عـــن

أشياء عادية حتى لا أثير انتباهه و لا حزنه، لكن صوته لم يكـــن ككل مرة، فعرفت أنه لابد قد قرأ جريدة الصباح. و حزنت أنا الأخرى، فعلى الرغم من عدم معرفتي الشخصية به، الا أنني أرى أن الحكايات عنه و الذكريات معه كونـــت جـــزء مـــن روح ووجدان خالى، و كان خالى بعد أبي يكثر من زيارتنا و يقـــوم على شؤننا حتى أصابته أزمة صحية شديدة و بالتدريج دخل فى عزلة و ابتعد عن الضجيج، و اكتفى بمراقبة البلد التي أفنى شـــبابه للدفاع عنها من بعيد، و كان الحزن يدمى قلبه كلما شعر بمـــدى العجز و الهوان و النكران الذى يقابل به رجال مثله . و رغم كل شئ كان وقع خبر موت قائده من الأشياء التي أثقلت قلبه الواهن بفعل المرض والعمر. قال لى خالى: **آخر مرة شاهدته كانت فى بداية التسعينيات** كنت قد خرجت من الخدمـــة منـــذ زمـــن وابتلعتني ساقية الحياة ، أقف ساهمًا لا أدري إن كان هم جهـــاز البنت أو محاولة إيجاد فرصة عمل للابن كان شاغلى، أم همـــوم المرض و غلاء المعيشة الذى يفضح من كان مستورًا و يجر مـــن كان ابنا للبيوتات العريقة إلى درك اللهاث المـــستمر و المنقطـــع النظير خلف "لقمة العيش" ليس إلا.

على الرصيف شاردًا كنت أقف عندما اقتربت عربة ركنت أمامى مباشرة و نزل منها قائدها، كسر حاجز الصمت داخلـــى صوت أعرفه، أعرفه جيدا لكن الصورة كانت ضبابية، باهتـــة، أتراه وهن البصر بفعل السن أم ضعف النظر بفعل الواقع.

"كيف حالك يا حفنى؟"

"....................."

"ألا تعرفني بعد؟! أنا الفريق عزيز..........عزيز غالى"

"كيف لا؟ طبعا يا فندم يا سيادة الفريق العزيـــز الغـــالى، لا تؤاخذنى إنها الأيام الصعبة"

و أخذنا بعضنا بالحضن، إننا اليوم نتقابل بعـــد كـــل هـــذه السنين كرفقاء درب واحد.

كانت السنون قد غيرته هزل كثيرًا و بدت عليه علامـــات الكبر و لكن عينيه كانتا تتوهجان كعهدهما.

سأل عن أحوالى و كيف أعيش و أتعيش و تـــذكر معـــى لحظات كثيرة جمعتنا كقائد و مقاتل أمضيا زهرة عمرهما بـــين الجبال فى صحراء هذا البلد.

أما أنا فكثيرًا ما تساءلت فى كل مرة أري فيها طلبة إعدادى و ثانوى و جامعة هل لو قامت الحرب الآن سنجد من يمـــوت وهو ممسك بالعلم لا يتركه حتى آخر أنفاسه؟ هل سنجد مـــن يدخل برأسه ليسد فوهة المدفع الخارج من النقطة الحـــصينة فى خط بارليف حتى يعبر زملاؤه بسلام و يسيطروا على الحـــصن؟ هل سيلقى أحدهم بنفسه تحت دبابة بعد أن يلغم نفسه ليفتدى قائد الفرقة، كما حدث مع القائد فؤاد عزيز غـــالى، حـــتى لا تحدث بلبلة أو ارتباك بين الجنود بسبب موت قائـــدهم أثنـــاء

المعركة؟ هل سيهجم أحدهم بمدفع على كتفه و يتسلق بأظافره جبل التراب و الحجارة الذى كان يفصلنا عن سيناء؟

بينما كان كل هذا الحب و كل هذه التضحية التى لا تعادلها تضحية أو بطولة، إذ أنها تضحية بكل ما فينا بأنفسنا كاملة، بينما كان يحدث كل هذا ببساطة و تلقائية، بدون أسئلة ممجوجة، عن اسمك حتى الجد الرابع لاكتشاف عقيدتك الدينية.

هل سيظهر "عبد العاطى" آخر؟ ليسجل فى موسوعات الأرقام القياسية العسكرية، كفرد مقاتل استطاع بمفرده و بمدفع على كتفه من تدمير ٢٧ دبابة، ثم يموت منسيًا على أحد أسرة المستشفيات من جراء غيبوبة الكبد، عندما قتله فيروس تسلل إليه بفعل منظومة خبيثة تملكت رقابنا فى غفلة منا.

وأخيرًا هل سيعيد الزمن ملحمة أكتوبر؟ و تعرف الأجيال المغيبة اليوم، بالمخدرات الفعلية و الفنية والدينية، أن أول الجنود الشهداء كان مسلمًا و أول الضباط الشهداء كان مسيحيًا، و أن الاثنين استشهدا لأنهما مصريان دافعا عن شرف هذا التراب الذى وسدهما و الذى ندوس عليه اليوم بلا رحمة.

القاهرة مارس ٢٠٠٠

سألنى محمود ابنى، التلميذ فى الصف الأول الابتدائى، اليوم بعد أن عاد من المدرسة:

"لماذا لم يعطنى زميلى فى الفصل زمزمية المياه لأشرب و قد كنت عطشانا؟

" هل ضايقته فى شئ؟

"لا، لكنه قال لى إنه لن يدعنى أشرب من الزمزمية لأننى مسلم؟ ماما ألسنا كلنا أصدقاء فى المدرسة؟ ما الفرق بين المسلم و المسيحى؟"

"لا شئ يا حبيبى، لابد أنه كان يداعبك فقط"

أثار غضبى و ذهولى الحديث، فلابد أن يكون هذا انعكاس لما يسمع ذلك الصغير فى محيطه.

ذهب زوجى من فوره لمقابلة المسئول بمدرسة الرهبان العريقة، و التى حرصنا على أن يتعلم بها الأبناء لما عرف عنهم من حزم و حسن تربية و سماحة، كان هو الآخر فى منتهى الدهشة و الاستياء وقال لزوجى:

"يحزننى كثيرًا ما أرى و أسمع هذه الأيام، ما هكذا كنا و لا هكذا كانت مصر!!"

"لست أدرى ما الذى تعلمته فى الواقع، خلال السجن فى ذلك المعهد الوطنى. و لكن أربع سنوات من المعايشة حسنة الانسجام مع الجميع الهمتنى رؤية لوحدوية الأمة. واكتشفت

كم كنا متعددين،وما هى فائدتنا. و تعلمت ما لن أنساه أبدًا، بأنه فى جوهر كل واحد منا، توجد البلاد بأسرها" (جابرييـــل جارسيا ماركيز: عشت لأروى).

سلام

إيمان محمود جمال الدين

القاهرة يونيو /٢٠٠٦

الفهرس